

فنون الأدب العربي
الفن القصصي

٤

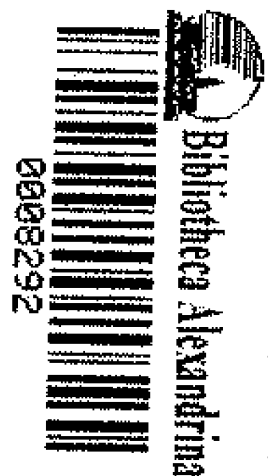
الرحلات

بقلم
الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الرابعة



دار المعارف



الزحافات

فنون الأدب العربي

الفن القصصي

٤

الرحلات

بقلم

الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الرابعة



دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا عَرَضٌ موجز لأشهر كُتُب الرحلات عند العرب ، قسمناها فيه أقساماً ، فجعلنا منها الجغرافية والبحرية والبرية في الأمم والبلدان . وقد يكون غريباً أن تكون للجغرافية رحلات بعينها ، ولكن هذا ما حدث فعلاً ، فإن القوم لم يعمدوا إلى الكتابة في الجغرافيا بطريق النقل والرواية عن الآخرين أو السابقين ، بل كانوا يطوفون بأنفسهم في العالم الإسلامي وغيره ، ويقيدون مشاهداتهم وما يقع تحت أبصارهم . فأصبحت كتاباتهم الجغرافية في كثير من صورها رحلات بالمعنى الدقيق ، تصور أحوال الناس والعمران بالعين الباصرة اللاقطة ، على نحو ما يرى القارئ في الفصل الأول من هذا الكُتَيْب . وفي ثَبَتِ الرحلات العربية تبرز رحلات بحرية ، رويت عن التجار والملاحين وهواة البحار . وهي تبدأ عند العرب بمغامرات تاجر يسمى سليمان ، قذف بنفسه في لُجَجِ المحيط الهندي والهادي . ثم تتسع فتشمل مغامرات أخرى في البحرين الأحمر والأسود ، وفي المحيط الأطلسي أو بحر الظلمات . وتتضمن هذه المغامرات كثيراً من المعلومات عن البحار وحيواناتها وأسماكها وأصداؤها والأقوام الذين يسكنون على شواطئها . ويصاغ ذلك في أسلوب قصصى بديع ، يؤكد الواقع أحياناً ، وينشئ لنا عوالم خيالية أحياناً أخرى ، مما يراه القارئ ماثلاً في الفصل الثاني .

أما الرحلات في الأمم والبلدان عن طريق البر وفي القوافل فهي كثيرة

كثرة مفرطة ، وهى أيضاً متنوعة ، فمنها ما يقف عند بعض البلدان العربية كمصر ، ومنها ما يتجاوز حدود العالم العربى ، إلى عالم ناء بعيد كعالم البلغار وأوربة الشرقية ، أو عالم الهند والصين ، أو عالم السودان وإفريقية الوسطى . وفى كل هذه العوالم يكتب الرحالة بمخيلة القصاص الذى يسند الواقع بالخيال والحقيقة بالأسطورة ، على نحو ما يراه القارئ فى الفصل الثالث .

ووقفنا فى الفصل الرابع عند رحلة ابن جبير فى العالم الإسلامى ، فقد عرض علينا هذا العالم عرضاً قصصياً شائقاً واقتبسنا منه بعض صوره الحية . وفى الفصل الخامس تحدثنا عن رحلة ابن بطوطة ، وعُنيينا بقصصه عن الأقطار النائية مثل بلاد البلغار والمغول والهند والصين والسودان الغربى ، وقد يشفع حكاياته الحقيقية بحكايات خرافية ، وهو فى كل ذلك يتقن الصنعة القصصية . ولا نبالغ إذا قلنا إن الرحلات من أهم فنون الأدب العربى ، لسبب بسيط ، وهو أنها خير رد على التهمة التى طالما اتهم بها هذا الأدب ، ونقصه تهمة قصوره فى فن القصة . ومن غير شك من يتهمونه هذه التهمة لم يقرءوا ما تقدمه كتب الرحلات من قصص عن زواج إفريقية وعرائس البحر وحجاج الهند وأكلة لحوم البشر وصناع الصين وسكان نهر القوبلجا وعبيدة النار والإنسان البدائى والراقى مما يصور الحقيقة حيناً ، ويرتفع بنا إلى عالم خيالى حيناً آخر . وقد انتفعت بما كتبه الباحثون قبلى فى هذا الموضوع وخاصة ما كتبه الدكتور حسين فوزى عن الرحلات البحرية فى « حديث السندباد القديم » . وأرجو مخلصاً أن يكون هذا الكُتَيْب حافزاً للقراء أن يعودوا إلى كتب الرحلات ليقروها ، فإنها ذخائر نفيسة ، والله الهادى إلى سواء السبيل .

شوقى ضيف

القاهرة فى ١٥ من مايو سنة ١٩٥٦ م

تمهيد

إن تاريخ الإنسان إنما هو تاريخ لمحاولاته التعرف ثم السيطرة على العالم الخارجى من حوله ، وقد ناضل أولا القوى الحيوانية التى تحول بينه وبين هذه السيطرة ، ثم أخذ يناضل القوى الإنسانية ، فتكونت القبيلة ثم تكونت الأمة ، واندفعت من إقليمها إلى الأقاليم المجاورة تكتشف آفاقاً جديدة .

وكل هذه رحلات بدأت ضيقة ، ثم اتسعت مع مرّ الزمن . فالإنسان وُلد راحلاً ، وإن أعجزته الرحلة ، تخيل رحلات غير محسوسة فى عالم الخيال ، ونجد ذلك مبثوثاً فى الأساطير الأولى ، كما نجده ماثلاً فى الحروب والفتوح القديمة ، وما سطره الملوك الأول فى مصر وغير مصر .

ومن المعروف أن ملوك مصر سجلوا رحلاتهم فى آسيا . وعلى جدران معبد الدير البحرى بمصر العليا تصاوير بديعة لسفن الملكة حتشبسوت من ملوك الأسرة الثامنة عشرة وهى عائدة من رحلتها إلى بلاد « بونت » فى الجنوب . وأكبر الظن أنهم كانوا يطلقون هذا الاسم على بلاد الصومال . وعلى نحو ما جابت سفننا البحر الأحمر جابت بحر الروم .

وكان للفينيقيين رحلات بحرية كبيرة نحاظوا فيها عُبَاب المحيط الأطلسى وَحَطُّوا رحالهم فى الجزائر البريطانية ، وأقاموا مستعمرات لهم على طول بحر الروم فى الجنوب وفى أسبانيا . ونحلتهم الإغريق يقيمون مستعمرات لهم فى البحر الأسود وفى بحر الروم ، وقد عُنُوا عناية واسعة بوصف البلدان والأقاليم التى زاروها ، وقدموا لنا كثيراً من المعارف الجغرافية ، وهم أول من قال بكروية الأرض وبأن وراء البحار والمحيطات عوالم مسكونة، تقطنها شعوب مختلفة

وأكبر رحالة عرفه الإغريق « هيرودوت » الذي زار مصر وقبرص وفينيقيا وآشور وإيران وتوغل في الشمال إلى البوسفور ، وأودع مشاهداته في هذه الزيارات أو الرحلات تاريخه الكبير . وحملته طائفة من مؤرخي الإغريق حفلت كتبهم بأخبار الأمم المجاورة ، ولعل أهمهم « بلوتارك » الذي عني بتاريخ اليونان والرومان ، ومنه استمد شكسبير كثيراً من مسرحياته .

وتصبح روما عاصمة العالم القديم ، ويتوغل أبناؤها في إمبراطوريتها الواسعة ، وتصل سفنهم إلى جزائر كناريا في المحيط الأطلسي ، كما تصل إلى الهند والشرق الأقصى ، ويطوفون بدولتهم في إفريقية وآسيا ، ويجمعون من هنا وهناك أخبار الأمم المفتوحة في أوربة وغير أوربة ، حتى يمكن أن يقال إن مؤرخيهم جمعوا لنا كل ما كان معروفاً عن سطح الأرض في زمانهم . وفي مقدمة هؤلاء المؤرخين يوليوس قيصر الذي دوّن في كتابه « التعليقات » حروبه في الغال ، ووراءه كثير من مؤرخي الرومان ، يقصون الأسفار والرحلات ، ويصفون البلدان النائية ، ومن برعوا في ذلك « تاسيت » الذي قصّ أحوال التيوتون الأوائل في كتابه « جرمانيا » .

ونلتقى في القرن الثاني للميلاد ببطليموس الإسكندري ، وهو إغريقي الأصل ، وقد ترك كتابين في الجغرافية والفلك . ونراه يدوّن وصفاً مفصلاً للبلدان والأماكن في عصره ذاكرة أطوالها وعروضها ، ومبيناً بالرسم مواقعها .

ثم جاء دور العرب ، وفتحوا الأرض من الهند والصين إلى المحيط الأطلسي وجبال البرانس ، ومن التركستان وجبال القوقاز إلى السودان ، وأصبح كل ذلك عالماً واحداً مشتركاً في الدين والثقافة . ووصف مؤرخوهم مدن هذا العالم وبلدانه ، كما وصفوا سكانه . وكان ذلك إرهاباً لما قام به علماءهم وأدباؤهم من رحلات في المستقبل ، اشترك فيها التجار وغير التجار .

وكان من أهم الأسباب في تدوين هذه الرحلات حاجة الدولة إلى معرفة

الطرق الكبرى التي تصل أقاليمها ، ومن ثم ألُفَت كتب كثيرة في وصف المسالك والممالك . وهذه الحاجة السياسية اقترنت بها حاجة دينية ، إذ كان الحج إلى مكة فريضة على كل مسلم ، وكان المسلمون يتجشمون راضين كل مشقة في سبيل أداء هذه الفريضة وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة . وعلى طول الطريق في الشرق والغرب تقيم الدولة ويقيم أهل الخير الخبوس والرُّبُطَ معونة للحاج ، ويصف كثير من هؤلاء الحاج طريقهم إلى الأماكن المقدسة في كتب أو في رحلات مختلفة .

وبجانب ذلك كان التجار يتضرّبون في أراض جديدة : عن طريق القوافل ، وعن طريق البحر وسفنه ، وقد وصلوا في مغامراتهم إلى الصين والهند وشواطئ إفريقيا الشرقية والغربية جنوبي خط الاستواء ، واستطاعوا أن ينشروا الإسلام في أندونيسيا وغيرها من الجزائر الهندية النائية . وما قصة « السندباد البحري » الخيالية إلا صورة لمغامراتهم في البحار الجنوبية .

وكانت السفارات لا تفتر بين الدول العربية والدول المجاورة من غربية وغير غربية ، وكانوا يسجلون ذلك في رسائلهم ، وقد يرحلون حبا للاستطلاع كما رحل ستلام الترجمان بأمر الخليفة الواثق (٨٢٧هـ / ٨٤١ م) للبحث عن سدّ الصين الكبير ، الذي يقال إن الإسكندر بناه بين العالم القديم وديار يأجوج ومأجوج .

ولهذه الأسباب مجتمعة كثرت الرحلات عند العرب وتنوعت بتنوع أسبابها وخوافيها السياسية ، والدينية ، والاقتصادية ، ونشأت عند كثيرين منهم محبة المجازفة فيما وراء المعروف ، حتى ليُظنّ أن منهم من وصل إلى أمريكا قبل أن يكتشفها كولبوس . وإن في قصة الفتية المغرّرين من شباب لشبونة التي رواها الإدريسي في كتابه « نزهة المشتاق » ما يشير إلى ذلك ، فقد أوغلوا في المحيط الأطلسي أو بحر الظلمات إلى مسيرة شهرين من بلادهم ، ورأوا

جزائر وشعوباً غريبة . وليس من المصادفة أن يكون رائد فاسكودى جاما فى اقتحامه بحر الهند من الرجاء الصالح عربىّ يسمى ابن ماجد ونفتح الحروب الصليبية صفحة جديدة فى تاريخ أوربة ، ويأخذ أهلها فى تسجيل أسفارهم ورحلاتهم ، ولا يلبث مركوبواو أن يكتب رحلته المشهورة التى وصف فيها وصفاً بديعاً مشاهداته من بلده إيطاليا إلى صحراء جوبى وسهول منغوليا فى الصين .

وبجل القرن الخامس عشر انتصار البرتغاليين على المحيط الأطلسى المسمى بحر الظلمات أو الأوقيانوس ، فقد تتابعت بعوثهم تكشف مجاهله من جزائر وشواطئ مختلفة حتى وصلت إلى رأس الرجاء الصالح ، واندفع كولبوس إلى الغرب ، فاكشف أمريكا ، واكتشف فاسكودى جاما بحر الهند ، واستطاع ماجلان فى أوائل القرن السادس عشر أن يذرع البحار والمحيطات بأسطوله الشراعى ، ويثبت كروية الأرض بالدليل العملى .

ومنذ هذا التاريخ تدخل أوربة ويدخل العالم فى عصر الاستكشافات الكبير ، فتكتشف أستراليا وجزر المحيط الهادى . وتتعاقب الاستكشافات فى القارات القديمة والقارات الجديدة . ويسجل القرن الماضى انتصاراً رائعاً للأوربيين ، فلا يبقى نهر فى إفريقيا إلا يكتشف متصبّه ، ولا تبقى صحراء كبيرة إلا يذرعونها طولاً وعرضاً ، ويسيرون فى مناكبها وجوانبها الغامرة . وتمتد آمالهم إلى القطبين الشمالى والجنوبى ، وتنجاب أسرارهما .

وفى هذا القرن العشرين يصبح للطيارة فصول فى الرواية ، رواية الكشف عن العالم ومجاهله ويغدو كأنه كتاب مقروء ، فلا يبقى فيه طلمس ولا لغز ، بل تحل كل ظلامه والغازه . وحسبنا الآن أن نعرض ما كان للعرب فى هذا الميدان من جولات ، لاشك أنها كانت المقدمات لهذه الانتصارات الباهرة على مجاهل الأرض والبحار ، وإن فيها لأنصع البيّنات على محبة العرب للمغامرات والمجازفات .

الفصل الأول

رحلات جغرافية

١

كتب الجغرافيا

اهتم العرب بوصف البلاد التي دخلت مع فتوحهم في حوزتهم ، فتحدثوا عنها في كتاباتهم التاريخية الأولى ، ودعاهم ما في القرآن الكريم من إشارات إلى الأمم السابقة أن يطلعوا على ما عند أهل الكتب السماوية قبلهم من أخبارها ، وضمنوا ما عرفوا من ذلك تفاسيرهم لآي الذكر الحكيم . وبمجرد أن أخذوا في العصر العباسي ينقلون ما عند الأجانب من معارف وعلوم نقلوا ما عرفه الفرس والهنود والإغريق عن العالم القديم ، وخاصة من الوجهة الجغرافية ، وكان فيما نقلوا جغرافية بطليموس .

ولا نصل إلى عصر المأمون بن هرون الرشيد حتى يبدأ تأسيس علم الجغرافية العربية ، فتوضع خريطة للعالم على أساس خريطة بطليموس . ثم يأخذ العرب في التأليف الجغرافي ، فيصفون دولتهم الكبيرة التي امتدت من الهند وحدود الصين إلى أسبانيا وجبال البرانس ، ومن القوقاز وآسيا الصغرى إلى السودان ومجاهل إفريقيا ، كما يصفون الإمبراطوريات والشعوب المجاورة لهم ، وأمدتهم ملائحتهم بمعارف كثيرة عن أمم المحيط الهندي وجزئته .

واتبع جغرافيوهم طريقة ممتعة في وصف عالمهم والعوالم المحيطة بهم ، إذ عُنُوا بالحديث عن عادات الأمم والشعوب وطبائعها وما بديارها من آثار

وعجائب وقصص ما عندها من أساطير وخُرُافات . وبذلك أصبحت كتبهم الجغرافية كتباً أدبية ، تعتمد على المشاهدة وحكاية ما رآه الجغرافي تحت عينه وسمعه بأذنه ، وهي من هذه الناحية أقرب إلى أن تكون كتب رحلات منها إلى أن تكون كتباً جغرافية بالمعنى الذى نفهمه اليوم .

وكانت الدولة تحتاج من جهة الخراج والإدارة إلى معرفة المسالك فى البر لتنظيم البريد والاتصال بالبلاد المختلفة ، فعنى الجغرافيون بهذا الجانب ، وزاد فى عنايتهم به حاجة الحُجاج إلى معرفة محطات القوافل فى طريقهم إلى مكة . ومن هنا سُمّوا كثيراً من كتبهم باسم «المسالك والممالك» ، ومن هنا أيضاً كانت كتبهم شعبية ، فهى كتب تقدّم إلى الشعب لا إلى الدولة والطبقة المثقفة الممتازة فحسب ، ولذلك يغلب عليها الطابع القصصى ، ونجد لذة فى قراءتها ، إذ تنتقل بين أخبار جغرافية وتاريخية وقصصية ومشاهدات يرويها الجغرافيون عن أنفسهم أو عن الرحّالين وما أبصروا فى الممالك القريبة والبعيدة . وسنقف وقفات قصيرة عند طائفة من هذه الكتب الطريفة .

٢

المسالك والممالك لابن حوقل

ابن حوقل من جغرافى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) نشأ فى بغداد ، وقرأ ما سبقه وعاصره من كتب جغرافية ، وشغف بهذا العلم ، فصمم على أن يضع فيه كتاباً لا يأخذه من أفواه الناس ولا مما قرأه ، وإنما يأخذه عن عينه ومشاهداته فى العالم الإسلامى ، فطاف بهذا العالم ثلاثين سنة ، ثم وضع كتابه . وتصادف أن تشيّع ، وكانت مصر يحكمها الفاطميون ، فتحول

داعياً لهم ، واتجه بكتابه « المسالك والممالك » هذه الوجهة السياسية . ويتضح ذلك في حديثه عن البلاد التي كان يهيم الفاطميون أن يستولوا عليها مثل الأندلس وصقلية ، ويجرى حديثه عن الأولى على هذا النحو :

« الأندلس جزيرة كبيرة فيها عامر وغامر ، وطولها دون الشهر في عرض نيف وعشرين مرحلة ، ويغلب عليها المياه الجارية والشجر والتمر ، والرخص والسعة في الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر إلى أسباب التملك الفاشية في أكثرهم ، ولما هم به من رغد العيش وسعته وكثرته ، يملك ذلك أهل مهنهم وأرباب صنائعهم ، لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم ، ويسار ملكهم وقلة شغله وسقوط تكلفه بشيء يحذره وحال يخافه ، إذ لا خوف عليه ولا رقبة لأحد من أهل جزيرته ، مع عظم مرافقه وجباياته ووفور خزائنه وأمواله . وما يدل بالقليل منه على كثيره أن سكة دار ضربه على الدنانير والدراهم ضربيتها في كل سنة مائتا ألف دينار . . . هذا إلى صدقات البلد وجباياته وخرجاته وأعيانه وضماناته ومراصده والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة والبحوالى والرسوم على بيوع الأسواق . ومن أعاجيب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم وبعدم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنداد والأبطال » .

وواضح أنه يشير إلى غناها وخصب أراضيها وعظيم جباياتها ، كما يشير إلى ضعفها الحربي وأن من السهل أن يفتحها الفاطميون ، فتتحول هذه الديار إلى ملكهم وتلك الأموال إلى خزائهم . وكان يحكم الأندلس إذ ذاك دولة بنى أمية التي أسسها بها عبد الرحمن الداخل ، وفي عاصمتهم قرطبة يقول : « وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة ، وليس بجميع المغرب عندي لها شبيه في كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة

حمامات وفنادق وهي مدينة حصينة ذات سور من حجارة ومحال
 حسنة ولها بياض مُشرَّعان في قفس السور إلى الطريق الآخذ على الوادي
 من الرصافة ، والرصافة مساكن أعالي البلد ، متصلة بأساقفه من رَبعه ،
 مشبكة أبنيتها بحيطه بها مستديرة عليها من شرقها وشمالها وغربها والأسواق
 والبيوع والخانات والحمامات ومساكن العامة يربطها ، ومسجد جامعها
 جليل والحبس منه قريب . وقرطبة هاته يائسة يتقسطها عن مساكن أرباضها
 ظاهرة ، ودرتُ بها في غير يوم في قدر ساعة وليس لها نظير بالمغرب
 فخامة حال وسعة تملك وإبتدال بلعيد الثياب والكسبي وفراحة الكراع (الخيل)
 وكثرة الحلى ، وإن لم يكن لها في عيون كثير من الناس حسن بارع ، فليس
 لجيوشهم حلاوة في العين ولا علم بآيين (قوانين) القروسية وقوانينها ولا بالشجاعة
 وطرقها . وأكثر ظفر جيوشهم في القتال بالكيد . وما يدل على ذلك أني لم أر
 قط بها أحداً أجترى على فرس فاره أو برزون هجين ورجلاه في الركب « ولا
 يستطيعون ذلك ولا بلغنى عن أحدهم ، وكل ذلك لخوفهم من السقوط » إلى
 فشل فيهم عند لقاءهم

وقد عاد ابن حوقل إلى رى الأندلسيين بالضعف في الحرب ونقص
 استعدادهم فيها ليزين للفاطميين فتح هذه البلاد . ولا يهمننا ذلك الآن ، إنما
 تهمننا طريقته في الوصف الجغرافي ، فهو يقف ليعطينا معلومات طريفة عن
 البلدان وهي معلومات رحالة يصف ما يشاهده وصفاً دقيقاً ، ينقل إلينا فيه
 البلدة التي يصفها بكل ما فيها من أبنية وأسواق وحمامات ومساجد ومطاعم وملابس
 وعادات . وما يقوله في « بلرم » عاصمة صقلية وكان من بها من المسلمين
 لا يدينون بالولاء للفاطميين ، فدمهم ، وشنع عليهم :

« أكثر مياه البلد من الآبار ، وهي ثقيلة غير مروية ، وإنما صرفهم
 إلى شربها رغبةً عن شرب الماء البخاري العذب (الذي يجري حول بلدتهم)

قلة مروعاتهم وكثرة أكلهم اليصل وفساد حواسهم لكثرة تغذيتهم بالنبيء منه ، وما قيم من لا يأكله في كل يوم . . . وفيها أزيد من ثلاثمائة معلم يؤدبون الصبيان . وهم (أهل يلزم) يرون أنهم أفضلهم وأجلهم ، وأنهم أهل الله وهم شهودهم وأماؤهم ، هذا على ما اشتهر عن المعلمين من نقص عقولهم . . . وإنما لجئوا إلى هذه الصناعة هرباً عن الجهاد ونكولاً عن الحرب . . . وبهذه الطريقة أطلعنا ابن حوقل على حياة أهل البلدان التي وصفها بجانب ما تحدثت عنه من المسالك ، فكتابه ليس كتاب سرّد جغرافى ، وإنما هو رحلة كبيرة في العالم الإسلامى ، رحلة جغرافية بدیعة .

٣

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسى

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ، من بيت المقدس بفلسطين ، وإليه ينسب ، وهو في رأى بعض المستشرقين أعظم الجغرافيين عند العرب في جميع عصورهم . عاش في القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وجذبتة الكتابة في الجغرافيا ، فضرب في العالم الإسلامى وتنقل في ربوعه ، ثم أخذ يدون هذا الكتاب « أحسن التقاسيم » مصوراً أحواله الجغرافية والعمرائية ، مهتماً اهتماماً شديداً بالحديث عن « اختلاف أهل البلدان (الإسلامیة) في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم ونقودهم وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم وما يحمل من عندهم وإليهم . . . ومعادن السعة والخصب ، ومواضع الضيق والجذب ، والمشاهد والمراسد والخصائص والرسوم (الصفات والطبائع) والممالك والحدود » . يقول :

« ما تمّ لي جمع الكتاب إلا بعد جولاتي في البلدان ودخولي أقاليم الإسلام ولقائي العلماء وخدمتي الملوك ومجالستي القضاة ودرسي على الفقهاء ، واختلافي إلى الأدباء والقراء وكتّبة الحديث ومخالطة الزهاد والمتصوفين وحضور مجالس القصّاص والمذكرين ، مع لزوم التجارة في كل بلد ، والمعاشرة مع كل أحد ، والتفطن في هذه الأسباب بفهم قوي حتى عرفت ما ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها ، ودوراني على التخوم حتى حرّرتها ، وتنقلى إلى الأجناد حتى عرفت ما ، وتفتيشي عن المذاهب حتى علمتها ، وتفطني في الألسن والألوان حتى رتبها ، وتدبري في الكُور (المديريات) حتى فصلتها ، وبجّتي عن الأخرجة (الضرائب) حتى أحصيتها . مع ذوق الهواء ، ووزن الماء ، وشدة العناء » .

وهذا الكلام الذي نقلناه عن مقدمته لكتابه يدلّ أبليغ الدلالة على مدى جهده في الدراسة ، فقد عانى في جمع مادة كتابه ، وتناول فيه أحوال كل بلدة وأهلها من طبائع وعادات حتى في لغاتهم . والكتاب بذلك يعدّ طُرْفَة حقيقية ففيه مادة غنية عن سكان كل بلدة وما يمتازون به في طعامهم وثيابهم وعبادتهم ونُسكهم ، وهو يتحول إلى ما يشبه شريطاً سينمائياً ، فيعرض علينا سكان العالم الإسلامي بكل خصائصهم وصفاتهم ، وتلخص هذه الصفات والخصائص في أوائل كتابه ، فقال :

« أظرف الأقاليم العراق ، وهو أخف على القلب وأحد للذهن ، وبه تكون النفس أطيب والخطأ أدق . وأجلها وأوسعها فواكه وأكثرها علماء وأجلّة المشرق (الدولة السامانية في خراسان) وأكثرها صوفاً وقزّاً الديلم (جرجان وطبرستان) وأجودها ألباناً وأعسلاً وألذها أخباراً وأمكنها زعفراناً الجبال (أعلى إيران) وأكثرها ثماراً وأرخصها أسعاراً ولحوماً وأنقلها قوماً الرحاب ، وأسفلها قوماً وأشهرهم أصلاً وفصلاً خوزستان ، وأحلاها تموراً وأوطأها قوماً كرمان ، وأكثرها أرزاً ومسكاً وكافوراً السند ، وأكيسها قوماً وتجاراً وأكثرها فسقاً فارس ،

وأشدها حرّاً وقحطاً ونخبلاً جزيرة العرب ، وأكثرها بركات وصالحين وزهاداً مشاهد الشام ، وأكثرها عباداً وقراءً وأموالاً ومتجراً وخصائص وحبوباً مصر . . . وأجفأها وأثقلها . . . وأكثرها مدناً وأوسعها أرضاً المغرب »

وظل على هذا النحو يعدد أوصاف كل بلدة ، ثم أخذ في ذكر أقاليم العالم الإسلامي ، وبدأ بجزيرة العرب ، فتكلم عن مسالكها وبلدانها بلداً بلداً ، وما قاله في مكة :

« مكة هي مصرُ هذا الإقليم قد خُطَّت حول الكعبة في شِعْب واد ... بناؤها حجارة سود ملّس وبيض أيضاً ، وعلّوها الآجر ، كثيرة الأجنحة من خشب الساج ، وهي طبقات مبيضة نظيفة ، حارة في الصيف إلا أن ليلها طيب ، قد رفع الله عنهم مئونة الدفء ، وأراحهم من كلف الاصطلاء . وكلُّ منازل عن المسجد الحرام يسمونه المسفلة ، وما ارتفع عنه المَعْلَة ، وعرضها سعة الوادي ، والمسجد في ثلثي البلد إلى المسفلة ، والكعبة في وسطه ، وفيه طول . وباب الكعبة مرتفع عن الأرض نحو قامة ، عليه مصراعان ملبَّسان بصفائح الفضة ، قد طليت بالذهب قبال المشرق . طول المسجد ثلاثمائة ذراع ، وعرضه ثلاثمائة وخمسة عشر ذراعاً ، وطول الكعبة أربعة وعشرون ذراعاً وشبراً في ثلاثة وعشرين ذراعاً وشبراً » .

ويُفيض في الحديث عن المسجد وخطط مكة والمشاعر المختلفة من مثل منى والمزدلفة والطرق المفضية إليها من جميع الآفاق . ويتحدث عن بلاد العرب غير مكة ، ثم يعقد فصلاً على عاداته في كل إقليم يتكلم فيه عن خصائص هذه البلاد في جوها وفي خصيها وجدبها وفي المذاهب الدينية المنتشرة بها والتجارات التي تشيع فيها . ويتحدث عن رسوم القوم في ثيابهم وطباعهم وأخلاقهم وكيف يحتفلون برمضان وأعيادهم ، وهو في كل ذلك يأتي بالطريف من الخبر . وإذا استوفى الحديث عن بلاد العرب خرج إلى إقليم العراق فإقليم الشام ،

فلإقليم مصر ، فلإقليم المغرب ، ثم انتقل إلى أقاليم العجم ، وهو في كل إقليم يتحدث عن بلاده بلداً بلداً وطباع أهلها ومطامعهم وملابسهم وتجاراتهم وحرفهم وما يؤدون من الضرائب ، ويفرد فصولاً واسعة لما يراه من مشاهد وآثار ، وما جاء فيه عن عجائب إقليم مصر :

« فيه عجائب منها الهرمان اللذان هما أطول عجائب الدنيا من حجارة ، شبه عماريتين (هودجين) ارتفاع كل واحدة أربعمائة ذراع في عرض مثلها ، قد ملئت بكتابة يونانية (كذا) وفي داخلهما طريقان إلى أعلاهما ، وطريق تحت الأرض . . . وسمعت فيهما أشياء مختلفة ، فمنهم من قال هما طلسمان ، ومنهم من قال كانتا أهرام (مخازن) يوسف ، وقيل بل كانت قبورهم . . . ويقال مكتوب عليهما : إني بنيتهما فمن كان يدعى قوة في ملكه فليهدمهما ، فإن الهدم أيسر من البناء ، فأراد بعض الملوك هدمهما ، فإذا خرج مصر لا يقوم بهنعهما ، فحركهما . وهما أملسان . . . يريان من مسيرة يومين وثلاث لا يصعد فوقهما إلا كل شاطر ، وحولهما أمثالهما عدة صغار ، وهذا يدل على أنها مقابر . . . وبعين شمس شبه منارتين طويلتين ، قطعة واحدة ، على رأسهما شبه حربة ، تسميان المسلتين . . . وقرأت في كتب الطلسمات أنهما طلسمان للتأمسيح . وبالإسكندرية منارة قد أرسى أساسها في شبه جزيرة صغيرة يُدْخَل إليها في طريق ضيقة بالصخر محكمة . . . والمنارة في جزيرة ، وفيها ثلاثمائة بيت يصعد إلى بعضها الفارس بفروسه ، وإلى كلها بدليل . . . ويقال إنه كان فيها امرأة يُرى فيها كل مركب أقلع من سواحل البحر كلها . . . »

وبتلك الصورة تختلط في هذا الكتاب الجغرافيا بالأخبار وعجائب الآثار وأحوال الناس والعمران ، وكانت تخيلة المقدسي من الخيالات اللاقطة التي تلتقط كل ما تشاهده وتسجله مع التحقيق والتدقيق في الرؤية وما ينقله عن الأفواه والشفاه .

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي

الإدريسي أبو عبد الله محمد أكبر جغرافي بلاد المغرب والأندلس ، وهو من سلالة الرسول عليه السلام ومن بيت بني حمود الذين تملكوا بعض بلدان الأندلس في القرن الحادي عشر ، ولد في سبسة سنة ٨٤٩٣ / ١٠٩٩ م وتعلم في قرطبة ، ثم رحل في البلاد : في الأندلس والمغرب ومصر والشام وآسيا الصغرى ، وأنهى به المطاف إلى صقلية ، وكان قد احتلها النورمان وأزالوا منها حكم المسلمين ، إلا أنهم عاملوهم بالحسنى ، واشتهر بذلك أميرهم روجر الثاني الذي كان يعجب بالعرب وما أتقنوا من علوم ومعارف . واتصل الإدريسي بهذا الأمير فأعجب كل منهما بصاحبه ، وقد عرف فيه روجر قدرته البارعة على رسم الخرائط ومهارته في علم الجغرافية ، فطلب إليه أن يؤلف فيها كتاباً له ، فلم يهجم على التأليف مباشرة ، بل أنقذ طائفة من الرحالة إلى بلدان متفرقة ليأتوه بالمعلومات ، فكتبوا له تقارير عما شاهدوه ، أضافها إلى ما شاهدته بنفسه في البلدان ، وجمع أكثر ما كُتب في هذا العلم ، واتخذ من كل ذلك مادة لتأليف كتابه الذي سماه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » كما يسمى باسم كتاب روجر لأنه ألف من أجله ، وقد نقل إلى اللاتينية موجز له في القرن السادس عشر . ومنذ هذا التاريخ يهتم بهذا الكتاب المستشرقون ، إذ يرون في مؤلفه « إسطرابون » العرب وأكبر جغرافيتهم على الإطلاق . ولم ينشر الكتاب إلى اليوم ، إنما نشرت قطع منه ، وفي دار الكتب المصرية منه نسخة مخطوطة .

وزود الإدريس كتابه بإحدى وسبعين مصوراً ، ولذلك يعد أعظم مصنفات العصور الوسطى في الجغرافية ، وهو يتبع الطريقة العربية ، طريقة العرض الجغرافي القائم على المشاهدة ، وتفصيل أحوال الأمم والسكان ، وبيان ما بكل بلدة من عجائب البنيان والآثار . ولا يقف بكتابه عند وصف العالم الإسلامي ، بل يضم إليه وصفاً دقيقاً للعالم المسيحي في أوربة ، مفيداً من الرحالة الذين وضعهم روجر تحت إمرته ، وقد أوفدهم إلى بلدان أوربة المختلفة ، ونقلوا إليه كثيراً من المعلومات عن فرنسا وإيطاليا وألمانيا وأواسط أوربة وشرقها . ومن أطرف ما جاء فيه حديثه عن المدن الأندلسية التي زارها من مثل طليطلة وفيها يقول :

« مدينة طليطلة من طليطيرة شرقاً ، وهي مدينة عظيمة القطر ، كثيرة البشر حصنة الذات ، لها أسوار حسنة ، ولها قصبة فيها حصانة ومنعة . وهي أزية من بناء العمالقة . وقليل ما رُئي مثلها إتقاناً وشماخة بنيان . وهي عالية الدرى ، حسنة البقعة ، زاكية الرقعة . وهي على ضفة النهر الكبير المسمى تاجه ، ولها قنطرة من عجيب البنيان ، وهي قوس واحدة ، والماء يدخل تحت ذلك القوس كله بعنف وشدة جرى . ومع آخر القنطرة ناعورة ، ارتفاعها في الجو تسعون ذراعاً ، وهي تُصعد الماء إلى أعلى القنطرة ، والماء يجري على ظهرها ، فيدخل المدينة . ومدينة طليطلة كانت في أيام الروم دار مملكتهم وموضع قصدهم ، ووجد أهل الإسلام فيها عند افتتاح الأندلس ذخائر كادت تفوق الوصف كثرة ، فمنها أنه وُجد بها سبعون تاجاً من الذهب مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة ، ووجد بها ألف سيف مجوهر ملكى ، ووجد بها من الدر والياقوت أكياس وأوساق (حمول) ووجد بها من أنواع آنية الذهب والفضة ما لا يحيط به تحصيل ، ووجد بها مائدة سليمان بن داود (كذا) وكانت فيما يذكر من زمردة ، وهذه المائدة اليوم في مدينة رومة !

ولمدينة طليطلة بساتين محلاة بها ، وأنهار جارية مخرقة ، ودواليب دائرة وجنات
يانعة وفواكه عديمة المثال ، لا يحيط بها تكييف ولا تحصيل ، ولها من جميع
جهااتها أقاليم رفيعة وقلاع منيعة تكتنفها . »

وانتهى الإدريسي من تأليف هذا الكتاب سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م
وتوفى روجر وخلفه غليوم الأول (١١٥٤ - ١١٦٦ م) وألف له كتاباً
آخر في الجغرافية سماه « روض الأانس ونزهة النفس » أو كتاب « المسالك
والممالك » . وقد توفى الإدريسي سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م .

٥

آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني

عاش القزويني في القرن السابع الهجري ، وتوفى سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م
واسمه زكريا بن محمد . ويدل لقبه على أنه من إقليم بحر قزوين شمالي إيران .
وله كتابان أحدهما هذا الكتاب « آثار البلاد » في الجغرافيا والثاني « عجائب
المخلوقات وغرائب الموجودات » في الفلك والتاريخ الطبيعي . وكتابه الجغرافي من
أطراف الكتب الجغرافية عند العرب ، وهو فيه لا يهتم بالمسالك ، إنما يهتم
بأحوال البلاد والسكان ، مضيفاً كل ما يستطيع من طرفة نادرة وعجيبة خارقة .
وقد قسم الكتاب إلى سبعة أقاليم ، تكلم في كل إقليم عن بلاده مرتباً لها على حروف
المعجم ، وهو لا يقف كما وقف المقدسي عند المملكة الإسلامية ، بل يضم
كما ضم الإدريسي ذكر البلدان الأوربية ، ويجمع من هنا وهناك غرائب
كثيرة عن العالم في أوربة وإفريقية وآسيا وبلادها البعيدة مثل الهند والصين ،
وما جاء فيه من عجائب الأخيرة :

« الهيكل المدور ، وله سبعة أبواب ، في داخله قبة عظيمة البنيان عالية السمك ، وفي أعلى القبة شبه جوهرة كرأس عجل ، يضيء منها جميع أقطار الهيكل ، وإن جمعا من الملوك حاولوا أخذ تلك الجوهرة فما تمكنوا من ذلك ، فمن دنا منها قدر عشرة أذرع خرق ميتاً ، وإن حاول أخذها بشيء من الآلات الطوال ، فإذا انتهى إليها انعكست ، وكذلك إن رى إليها شيئاً ، وإن تعرض أحد لهدم الهيكل مات ، وفي هذا الهيكل بئر واسعة الرأس من أكب عليها وقع في قعرها ، وعلى رأس البئر شبه طوق ، مكتوب عليه : هذه البئر مخزن الكتب التي هي تاريخ الدنيا وعلوم السماء والأرض وما كان فيها وما يكون ، وفيها خزائن الأرض ، لكن لا يصل إليها إلا من وازن علمه علمنا ، والأرض التي عليها هذا الهيكل أرض حجرية عالية كجبل شامخ لا يرام قلعه ولا يتأتى تقبه . وإذا رأى الناظر إلى ذلك الهيكل والقبة والبئر وحسن بنيتها مال قلبه إليها وتأسف على فساد شيء منها . ومن عجائب الصين . . . طاحونة يدور حجرها التحتاني ، والفوقاني ساكن ، ويخرج من تحت الحجر دقيق لا نخالة فيه ونخالة لا دقيق فيها ، كل واحد منهما منفرد عن الآخر . وبها قرية عندها غدير فيه ماء ، في كل سنة يجتمع أهل القرية ويلقون فرساً في ذلك الغدير ، والناس يقفون على أطرافه كلما أراد الفرس الخروج من الماء متعوه ، وما دام الفرس في الماء يأتيهم المطر ، فإذا أمطروا قدر كفايتهم وامتلاً الغدير أخرجوا الفرس وذبحوه على قلعة جبل وتركوه حتى يأكله الطير ، فإن لم يفعلوا ذلك في سنة من السنين لم يمطروا . . . ولأهل الصين يد باسطة في الصناعات الدقيقة ، ولا يستحسنون شيئاً من صناعات غيرهم ، وأي شيء رأوا أخذوا عليه عيباً ، ويقولون : أهل الدنيا ما عدائنا عمي إلا أهل كابل فإنهم عور ، وبالفوا في تدقيق صنعة النقوش ، حتى إنهم يصورون الإنسان الضاحك والباكى ، ويفصلون بين ضحك السرور

والحجالة والشماتة ، وإذا أراد ملكهم شيئاً من المتاع يعرضه على أرباب الخبرة ، ولا يتركه في خزائنه إلا إذا وافقوا على جودته . وحكى أن صانعاً اتخذ ثوباً ديباجاً عليه صورة سنابل وقعت عليها العصافير ، فعرضه الملك على أرباب الخبرة واستحسنوه ، إلا صانعاً واحداً ، قال : العصافير إذا وقعت على السنابل أمالتها ، وهذا المصور عملها قائمة لا ميل فيها ، فصدقه الحاضرون وعجبوا من دقة نظره في الصنعة . ومن خواص بلاد الصين أنه قلما يُرى بها ذوعاهة كالأعشى والزمن (ذى العاهة) ونحوهما وأن الهرّة لا تلد بها . وقال محمد ابن أبي عبد الله : رأيت بالصين إنساناً يصبح صباح القردة ، وله وبر كوبر القرد ويداه تنالان ساقيه إذا بسطهما قائماً ويكون على الأشجار ، يشب من شجرة إلى شجرة ، وبينهما عشرة أذرع . وبالصين دابة المسك ، وهي دابة تخرج من الماء في كل سنة في وقت معلوم ، ويصطاد منه شيء كثير ، وهو شديد الشبه بالطباء ، فيذبح ويؤخذ الدم من سرتة ، وهو المسك ، ولا رائحة له هناك حتى يحمل إلى غيرها من الأماكن . . .

وواضح أن في الحديث عن هذه العجائب بعض المبالغات ، مما يجعل طائفة منها أقرب إلى الخرافة ، ولكنها مع ذلك لها طرافتها ، إذ أراد بها إلى القصص ، ونحن لا نقرأ فيها حتى نذكر كتاب ألف ليلة وليلة وما به من عجائب عن عالمي الجن والإنس . وكأن الجغرافيين أرادوا إرضاء حاسة الخيال عند قرائهم ، وكلما كان الإقليم أبعد تبادوا في المبالغة ، حتى ليروون أن للنساء جزيرة خاصة بهن ، ويقول فيها القزويني :

« في بحر الصين جزيرة فيها نساء لرجال معهن أصلاً ، وإنهن يلقحن من الريح ويلدن النساء مثلهن ، وقيل إنهن يلقحن من ثمرة شجرة عندهن يأكلن منها ، فيلقحن ويلدن نساء . حكى بعض التجار أن الريح ألقتة إلى هذه الجزيرة ، قال : فرأيت نساء لرجال معهن ، ورأيت الذهب في

هذه الجزيرة مثل التراب ، ورأيت من الذهب قضباناً كالخيزران ! فهممن بقتلى ، فحمتنى امرأة منهن ، وحملتني على لوح وسَيَّيْنِي في البحر ، فألقتنى الريح إلى بلاد الصين ، فأخبرت صاحب الصين بحال الجزيرة وما فيها من الذهب ، فبعث من يأتيه بخبرها ، فذهبوا ثلاث سنين وما وقعوا بها ، فرجعوا . وبجانب هذه الأقاليم نجد يقص عن البلاد الإسلامية كثيراً من الحكايات عن الزهاد والصالحين ، كما يتعرض لكثير من أخبار التاريخ والملوك السابقين . ومن طريف ما يرويه عن بَلَّخ وهي إحدى بلاد خراسان حكايات عن زاهدا إبراهيم بن أدهم المتصوف المشهور ، يقول :

« ينسب إليها من المشاهير إبراهيم بن أدهم رحمه الله ، كان من ملوك بلخ ، وكان سبب تركه الدنيا أنه كان في بعض متصيدياته يركض خلف الصيد ليرميه ، فالتفت الصيد إليه ، وقال : لغير هذا خلقت يا إبراهيم ، فرجع ومر على بعض رُعَّاته ونزل عن دابته وخلع ثيابه ، وأعطاها للراعي ، ولبس ثياب الراعي واختار الزهد . وحكى أنه ركب سفينته في بعض أسفاره ، فلما توغل في البحر طالبه الملاح بالأجرة وألح عليه ، فقال له إبراهيم : أخرجني إلى هذه الجزيرة حتى أؤدى أجرتك فأخرجه إليها وذهب معه ، فصلى إبراهيم ركعتين ، وقال : إلهي يطلب أجرة السفينة ، فسمع قائلاً يقول : خذ يا إبراهيم ، فدفَّ يده نحو السماء وأخذ دينارين دفعهما إلى الملاح ، وقال : لا تذكر هذا لأحد ، ورجعا إلى السفينة ، فهبت ريح عاصف واضطربت السفينة وأشرفت على الهلاك ، فقال الملاح : اذهبوا إلى هذا الشيخ ليدعو الله ، فذهب القوم إليه ، وهو مشغول بنفسه في زاوية ، فقالوا إن السفينة أشرفت على الهلاك ، ادَّعُ الله لعله يرحمنا ، فنظر إبراهيم بموق عينيه نحو السماء وقال : يا مرسل الرياح مُنِّ علينا بالنجاح ، فسكنت الريح في الحال . وحكى أنه مرَّ به بعض رُعَّاته من بلخ ، فرآه جالساً على طرف ماء يرُقِّع

ثوبه ، فجلس إليه يعيره بترك الملك واختيار الفقر ، فرمى إبراهيم إبرته في الماء ، وقال : رُدُّوا إلى إبرتي ، فأخرج سمك كثير من الماء رعوسه ، وفي فم كل واحدة إبرة من الذهب ! فقال : لست أريد غير إبرتي ، فأخرجت واحدة رأسها بإبرته ، فقال للرجل : أى الملكين خير هذا أم ذاك وحكى أن إبراهيم كان ناطوراً (حارساً) في بستان بأجرة ، فإذا هونائم وحيّة تروّحه بطاقة نرجس . وجاءه رجل جندي يطلب منه شيئاً من الثمرة ، وهو يقول : أنا ناطور ما أمرنى صاحب البستان ببذل شيء منها ، فجعل الجندي يضربه ، وهو يقول : اضربْ على رأس طالما عصى الله تعالى . توفي سنة ١٦١ هـ .

وعلى هذا النحو يجمع الكتاب خوارق النسّاك والمتصوفة بجانب خوارق البنيان والآثار ، ومن حين إلى حين نلتقى بغرائب الأخبار لا في الإنسان ، بل أيضاً في الطير والحيوان البرى والبحرى والزواحف ، وهم يكثرون من الحديث عن التّنين وهو ضرب من الحيات العظيمة ، ومن عجيب ما ذكره القزويني عن حَكَب :

« أنه ظهر بها سنة أربع وعشرين وستمائة تنين بغلظ منارة وطول مفرط ، ينساب على الأرض ، يبلغ كل حيوان يجده ، ويُخرج من فمه ناراً تحرق ما تلقاه من شجر أو نبات ، واجتاز على بيوت أحرقتها ، والناس يهربون منه يميناً ويساراً ، حتى انساب قدر اثني عشر فرسخاً ، فأغاث الله تعالى الخلق منه بسحابة نشأت وتدلّت إليه ، فاحتملته ، وكان قد لَفَّ ذنبه في كلب ، فرفع الكلب وهو يعوى في الهواء ، والسحاب يمشى به والناس ينظرون إليه إلى أن غاب عن الأعين . . . »

وطبيعي أن تكون هذه القصة التي حكّاها القزويني عن بعض الناس هناك ملفقة ، فهي أدنى إلى الخرافة ، وبمثالها كانت تروج هذه الكتب

الجغرافية في الناس ، إذ يجدون فيها مسلاة لهم . ودائماً نلتقى عند القزويني بمثل هذا التخريف الطريف .

ولا بد أن نشير هنا إلى كثرة الكتب التي ألفت في العصور الوسطى على هذا الطراز ، وربما كان أقربها إلى الواقع « معجم البلدان » لياقوت الحموي الذي ألفه سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م ورتب البلدان فيه على حروف الهجاء ، ولذلك سماه معجماً ، وهو يعرض علينا في كل بلدة أوصافها الجغرافية وأحوالها العمرانية ، وقد يعرض لشيء من تاريخها ، وربما أفاض في ذلك . ويذكر من نبغوا فيها بمختلف العلوم والآداب . وقد تنقل في كثير من البلاد وجمع من مشاهداته ومن الكتب السابقة له مادة وفيرة ، جعلت كتابه أغنى كتب البلدان معارف وأخباراً ، وكان ناقداً مثبِتاً ، فلم يفتح في كتابه باب الخرافة والأساطير على مصراعيه كما صنع القزويني .

وراء هذه الكتب التي وصفناها كتب جغرافية كثيرة تذهب مذهبها من مزج المعلومات الخاصة بوصف الأرض بمعلومات كثيرة تاريخية وعمرانية ، مع ذكر العجائب في البنيان والحيوان والطيور ، في عالمي البر والبحر . ومن أشهرها « كتاب البلدان » للياقوت و « الأعلام النفيسة » لابن رسته و « البلدان » لابن الفقيه و « تقويم البلدان » لأبي الفداء .

وأفردت كتب للعجائب التي ساقها الجغرافيون والمؤرخون ، ودارت في الأساطير الشعبية ، ومن أشهرها « خريدة العجائب » لابن الوردى و « نُخبة الدهر في عجائب البر والبحر » للدمشقي و « مختصر العجائب » لابن وصيف شاه ، وجميعها تلبّي رغبة الشعب في قراءة الخوارق والعجائب .

الفصل الثاني

رحلات بحرية

١

في عالم البحر

سلكت الأمم القديمة في آسيا وإفريقية وأوربة البحار التي تحيط بها ، وحملت فيها تجارتها وبعض جيوشها للفتح والغزو ، ولكنها لم تذهب بعيداً في المحيطات ، وكان العرب يسمون المحيط الأطلسي ببحر الظلمات رمزاً لما يكنف داخله من مجهولات مظلمة ، وكذلك كان شأن المحيطين الهندي والهادي . وبمجرد أن أسّس العرب دولتهم أخذوا يتصلون بالبحار القديمة مثل البحر الأحمر وبحر الروم أو البحر الأبيض المتوسط ، وكان لهم في الأخير أساطيل تحمي ثغورهم ، وأخذت قوافل التجار تعبره كما أخذت تعبر البحر الأحمر أو بحر القلزم ، وكان فتوحهم للهند في عصر مبكر سبباً في أن يفتحهم تجارهم المحيط الذي يدور حولها ، بل لقد أخذوا يقتحمون بحر الصين أو المحيط الهادي .

وكانوا يسقطون إلى الجنوب فيصلون إلى جزائر الهند الشرقية ، وكانوا يسمونها « واق الواق » ويُظنّ أنهم إنما أطلقوا هذا الاسم على الجزائر اليابانية ، وكانوا وصلوا إلى هذه الجزائر أيضاً . وقد عرفوا مدغشقر ونزلوا بإفريقية الشرقية في الصومال وجنوبي الصومال .

وكانوا يحملون من هذه البلاد والجزائر المختلفة أنواعاً لا حصر لها من عروض

التجارة ، مما تحصيه لنا اليوم كتب الجغرافيا عن غلات تلك الجزائر والبلدان .
ولسنا بصدد أن نتحدث هنا حديثاً جغرافياً ، إنما يهمنا رحلات القوم البحرية ،
وما ساقوا في وصف رحلاتهم من كتب تحدثت عن عجائب البحار . وأكثر
ما دونوا من هذه الكتب كان في المحيط الهندي والهادي على سواحل الصين ،
إذ كانت القوافل ذاهبة آية من البصرة وعدن وعمان إلى الهند والصين وما يجاورهما
من جزائر ومدغشقر وإفريقية وما بها من زنج وغير زنج .

وكانت الرحلة في البحر حينئذ تعد متعة حقيقية ، لما تحمل للملاحين
والمسافرين من مفاجآت في رؤية شعوب غريبة وبلاد عجيبة ، بالإضافة إلى
ما يحمله الماء نفسه من أسماك وحيوانات بحرية كبيرة وطيور مختلفة ألوانها
وحُجُومها . وكان الخوف يلعب بخيال الراحلين فيصور لهم كثيراً من الأوهام
حقائق ، ويحسم لهم بعض الحقائق الصغيرة أشياء مفزعة خطيرة . وفي كتاب
عجائب المخلوقات للقزويني صور كثيرة من ذلك كحديثهم عن طائر
العنقاء والرخ والحيوان البحري المسمى بالوال وبعض الحيوانات البرية التي
رأوها بالجزائر مثل الكركدن الذي شاهده في جزيرة الرامني ولعلها سومطرة ،
واستقصوا في الحديث عن اللآلئ وأصداف البحار ، ويختلط في كل ذلك
الواقع بالأسطورة ، والحقيقة بالخيال .

واهتمت كتبهم الجغرافية بالحديث عن البحار التي عرفوها والجزائر والبلدان
النائية التي رادوها ، وعنى منذ أول الأمر جماعة من الملاحين والرحالين بحكاية
ما شاهدوه في بعض أسفارهم وما اطلعوا عليه من عجائب وغرائب . ودخلت
مادة ذلك في عالم القصص على نحو ما نجد في قصص السندباد البحري
المشهورة في ألف ليلة وليلة . ونعرض هنا لأهم رحلاتهم التي دونوها في كتبهم .

رحلة التاجر سليمان

كان سليمان من تجار العراق الذين ينقلون عُرُوض الهند والصين إلى البلاد العربية ، وكانت طريقه إلى ذلك المحيط الهندي ، فالمحيط الهادى ، وعنى بوصف هذه الطريق وما شاهده فيها من جزائر وغيرها ، فكتب هذه الرحلة التى تعد أقدم ما تحت أيدينا من رحلات العرب البحرية ، فإنه ألفها سنة ٨٥١/٥٢٣٧ م . ولم تصلنا فى كتاب مستقل ، إنما وصلتنا فى كتاب لعراقى عاش فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) يسمى أبا زيد السيرافى ، وقد ذيل على رحلة سليمان بطائفة من الأخبار عن أهل الهند والصين ، جمعها من أقوال الرحالة . ونشر الرحلة وذيلاتها بعض المستشرقين باسم «سلسلة التواريخ» . ولكنى نفهم الرحلة لابد أن نعرف أسماء البحار التى كانوا يطلقونها على ما بطريقهم من مياه إلى ميناء خانفو فى الصين ، فقد كانوا يسمون الخليج الفارسى باسم بحر فارس ، ويليه بحر لاروى وهو الجزء من المحيط الهندي جنوبى إيران وشرق الهند ، فبحر الهير كند ، وهو جزء المحيط بين جزيرة سرنديب وخليج بنغالة ، فبحر ككلاه أو شيلاهط المحاذى لجزيرة ملقا وجزائر الهند الشرقية أو الزابج ، فبحر ككند رنج المحاذى لسيام ، فبحر الصنف الماس للهند الصينية ، فبحر صنخسى المحاذى للصين ، وعليه تقع خانفو ثغر الصين وهدف ملاحى العرب وتجارهم ، وفيه إلى الشرق جزائر واق والواق ولعلها جزائر اليابان .

ويبدأ سليمان رحلته بوصف بحر لاروى ، ويذكر أن به سمكة اصطادوها ،

فكان طولها عشرين ذراعاً وهي سمكة الوال ، ويقص أن به سمكة يحكى وجهها
وجه الإنسان وتطير فوق الماء ، وسمكة أخرى كبيرة تبتلع صغار السمك ،
وتسقط في جوفها وكأنما تسقط في بئر عميقة .

وينتقل إلى بحر الهر كسند، فيذكر أن به ألفا وتسعمائة جزيرة وتملكها جميعها
امرأة . وبهذه الجزائر عنبر عظيم القدر، وهو ينبت في قاع البحر ، وإذا اشتد
هيجانه لتفظه ، فيجمعه الناس ، وبها نخل النارجيل (شجر جوز الهند) وودع كثير
وهو مالهم وتدخره ملكتهم . وآخر هذه الجزائر سرنديب ، وبها مغاص اللؤلؤ ،
وفي أرضها جبل يدعى الرهون ، وعليه هبط آدم عليه السلام ! وحول هذا
الجبل معدن الجواهر : الياقوت الأحمر والأصفر والأسمانجوني وفي هذه الجزيرة
ملكان ، وهي جزيرة عظيمة عريضة ، فيها العود والذهب والجواهر وفي
بحرها السمك .

وفي هذا البحر إذا ركب من سرنديب جزائر ليست بالكثيرة غير أنها
واسعة ، منها جزيرة يقال لها الرامني (لعلها سومطرة) فيها عدة ملوك وسعتها
يقال ثمانمائة أو تسعمائة فرسخ ، وفيها معادن الذهب ، ومعادن تدعى
فَنَصُور ، يكون الكافور الجيد منها . وتلي هذه الجزيرة جزيرة يقال لها النيان ،
وبها ذهب كثير ويأكل أهلها النارجيل وبه يتأدّمون ويدّهنون ، وإذا أراد
أحد منهم أن يتزوج لم يزوجه إلا برأس رجل من أعدائهم فإذا قتل اثنين
زوّج اثنين . وكذلك إن قتل خمسين زوجوه خمسين امرأة وإنما يصنعون ذلك
لكثرة أعدائهم .

ويلى هذه الجزائر السابقة جزائر تسمى لَنَجْبَالُوس ، وفيها خلق كثير
عُرّة رجالا ونساء ، غير أن النساء يسترن عوراتهن بورق من الشجر .
وإذا مرت بهم مراكب جاءوا إليها في قوارب صغيرة وكبيرة ، وبادلوا من
يركبونها العنبر والنارجيل بالحديد . ومن وراء هؤلاء الناس جزيرتان بينهما بحر

يقال له أنشدَمان ، وأهلُهما يأكلون الناس أحياء ، وهم سود مقلقلو الشعور
مناكير الوجوه والأعين ، طوال الأرجل ، قدَمٌ أحدهم مثل الذراع ، عراة ،
ليست لهم قوارب ، ولو كانت لهم لأكلوا كل من مرّ بهم .

ويذكر سليمان أنه ربما رُؤي بهذا البحر سحاب أبيض يتدلى منه لسان
طويل رقيق حتى يحس ماء البحر ، فيغلي وتدور به زوبعة لا تأتي على مركب
إلا ابتلعته . ويقول إن بهذه البحار رياحا عاصفة ، كثيراً ما تهيج فتحطم السفن
تحطيا ، ويزعم أن هناك سمكاً يدعى اللحم ، وهو سبع يبتلع الناس .

ويصل بنا إلى خانقو ، ويقص أن بها جالية كبيرة من المسلمين وأن بها
شيخاً يولّيه صاحب الصين الحكم على المسلمين ، الذين يقصدون إلى ذلك
المرفأ ، وإذا أهل العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطانهم العباسي ،
وقال إن تجار العراق لا ينكرون شيئاً من أحكامه وأنه يحكم بكتاب الله
وما شرعه الإسلام .

ويعود سليمان فيتحدث عن الثغور والمواضع التي تمر بها السفن من حين
إقلاعها من البصرة أو من ثغر سيرا ف إلى بحر ككلاه المسامت لشبه جزيرة
ملقا ، ولباس أهلها الضوط . ثم تخطو السفن إلى بحر كندرنج فبحر الصنف ،
وهو بحر الهند الصينية ، ومنها كانوا يجلبون العود الصنفي ، وتتقدم السفن إلى
بحر صَنْخِي وهو بحر الصين حيث مرفأ خانقو .

ويتكلم بعد ذلك سليمان عن بلاد الهند والصين وملوكهما ويسوق طائفة من
الأخبار الطريفة تارة عن الملوك وتارة عن أحوال الناس وطباعهم وحياتهم
الاجتماعية ومعاملاتهم وإدارة حكوماتهم ودياناتهم وما يعبدون من الأوثان
والأصنام . ويقف كثيراً ليقارن بين أهل الهند والصين ، فن ذلك قوله :
« أهل الصين أهل ملاء وأهل الهند يعيرون الملاحى ولا يتخذونها ولا يشربون
الشراب ولا يأكلون الخلّ لأنّه من الشراب ، وليس ذلك ديناً ولكنه أفة ،

ويقولون أى ملك شرب الشراب فليس بملك ، وذلك أن حولهم ملوكاً يقاتلونهم فيقولون كيف يدبر أمر ملكه من هو سكران ؟ . . . وأهل الهند والصين إذا أرادوا التزويج تهاثوا بينهم ، ثم تهادوا ، ثم يشهرون التزويج بالصنوج والطبول ، وهديتهم من المال على قدر الإمكان . . . و [جزء] السَّرَق في جميع بلاد الصين والهند ، في القليل منه والكثير القتل . وحيطان أهل الصين الخشب وبناء أهل الهند حجارة وجصّ وآجرّ وطين ، وربما كان ذلك بالصين أيضاً . وليس الصين ولا الهند بأصحاب فرُش ، ويتزوج الرجل من الصين والهند ما شاء من النساء . وطعام الهند الأرز وطعام الصين الحنطة والأرز ، وأهل الهند لا يأكلون الحنطة . وأهل الصين يعبدون الأصنام ويصلّون لها ، ويتضرعون إليها ، ولهم كتب دين . والهند يطيلون لحاهم ، ربما رأيت لحية أحدهم ثلاثة أذرع ولا يأخذون شواربهم ، وأكثر أهل الصين لا لحي لهم خلقة لا أكثرهم . وأهل الصين والهند يزعمون أن البدّة (الأصنام) تكلمهم وإنما يكلمهم عبّادهم . والصين والهند يقتلون ما يريدون أكله ولا يذبحونه ، فيضربون هامته حتى يموت . وللهند خيل قليل وهي للصين أكثر ، وليس للصين فيسكة ، ولا يتركونها في بلادهم تشاؤما بها . وبلاد الصين أصحّ وأقلّ أمراضاً وأطيب هواء لا يكاد يُرى بها أعمى ولا أعور ولا من به عاهة . وأنهار البلدين جميعاً عظام ، فيها ما هو أعظم من أنهارنا ، والأمطار بالبلدين جميعاً كثيرة . وأهل الصين أجهل من أهل الهند وأشبه بالعرب في اللباس والدواب ، وهم في هيئتهم وفي مواكبتهم يشبهون العرب ، يلبسون الأقبية والمناطق ، وأهل الهند يلبسون فوطتين ويتحلّون بأسورة من الذهب أو الجواهر . . . »

وعلى هذا النحو نقرأ عند التاجر سليمان وصفاً طريفاً للبحار السبعة التي كانت تجتازها السفن إلى الصين كما نقرأ عنده أخباراً كثيرة عن حياة الناس في الصين والهند ، وقد تنبه في الأولى إلى شراب الشاي المعروف ، ولم يكن

العرب قد عرفوه بعد، فقال: إن عند أهل الصين حشيشاً يشربونه بالماء الحار
ويقال له السّاخ وهو أكثر ورقاً من الرُّطبة وأطيب قليلاً، وفيه مرارة، ويُنغلى
الماء ويُذَرّ عليه منه، وهو ينفعهم من كل شيء.

٣

عجائب الهند برّه وبحره وجزائره لبزرك بن شهريار النّاخداه .

نشر بعض المستشرقين هذا الكتاب في لندن سنة ١٨٨٦ ، ومؤلفه كما
يدل عليه لقبه « النّاخداه » كان ربّاناً يحترف ملاحاة السفن، وتدل حكاياته التي
يروها في الكتاب أنه كان يعيش في القرن الرابع الهجري (العاشر
الميلادي) وهي حكايات يرويها عن بعض الملاحين الذين جابوا المحيط الهندي
والهادي ، وفيها ما يدل على أن الكتاب زيدت فيه أقاصيص عن عصور
متأخرة عن عصر المؤلف ، وكأنما أُعجب القصص والرواة بالكتاب ، فزادوا
فيه على نحو ما كانوا يزيدون في كتب القصص مثل ألف ليلة وليلة . وبذلك
أصبح هذا الكتاب قصة ملاحٍ عربي فوق مَشْنِ المحيطين الهندي والهادي على
توالى العصور وما شاهدوا فيهما من عجائب الملاحاة وغرائب العواصف ،
وما أبصروه من حيوانات وأسماك بحرية وطيور ونسور مائية . ونحن لا نكاد
نمضي فيه حتى نقرأ هذا الخبر عن سمكة من نوع الوال .

« في سنة ثلاثمائة وقعت سمكة ببعض سواحل عُمان ، وجزر الماء عنها ،
فصيدت وسُحبت إلى البلد . . . وحضر الناس للنظر إليها ، وكان الفارس يدخل
من فتكّها ويخرج من الجانب الآخر ، وهو راكب ، لعظمها ، فإنها ذُرعت ،
فكان طولها زيادة على مائتي ذراع ، وارتفاعها نحو خمسين ذراعاً ، وبيع

من دُهن عينيها على ما قيل يبضع عشرة آلاف درهم ... وهذا السمك كثير
ببحر الزنج ، ويقال له الوال ، وهو بكسر المراكب مولع ، فإذا تعرض
للمركب ضربوا الخشب ببعضه ببعض ، وصاحوا وضربوا الطبول ، وإنه ربما
نفخ الماء ، فيرتفع مثل المنار ويسين من بعد مثل شراع المراكب ، وربما
لعب بدّنبه وأجنحته ، فيُرى من بعد أيضاً مثل شراع القوارب .

ويستمر في قصص عن بعض الحيوانات البحرية ، ثم يروى لنا هذا
الوصف الطريف لعاصفة ألت ببعض الملاحين في بحر الملاتو بالقرب من
الصين ، إذ ضلت بهم سفينتهم وكادوا يموتون غرقاً ، لولا أن امتدت إليهم
يد الرحمة من السماء ، فأنقذتهم بعد جهد جهيد ، يقول :

« سافر رجل في مركب له عظيم ، ومعه فيه خلق من أخلاط التجار من
كل بلد ، وهم يسرون في بحر ملاتو وقد قربوا من أطراف أرض الصين ،
وأبصروا بعض جبالها ، فلم يشعروا إلا وريح قد خرجت عليهم من الجهة
التي يقصدونها ، فلم يسعهم إلا الانصراف معها حيث توجهت ، وركبهم
من هول البحر ما لا طاقة لهم به ، ومرت بهم الريح إلى سمّت سهيل (نجم) .
ومن اضطرّ في ذلك البحر إلى أن يصير سهيل على قمة رأسه فقد دخل بحراً
لا رجعة له منه ، وتنكّس في لجة هابطة إلى الجنوب تصوبه إلى تلك الجهة ،
فكلما مرت المركب عكلاً ما وراءها من جهتها ، وهبط ما بين يديها من تلك
الجهة ، فلا تستطيع الرجوع بريح عاصف ولا غيره ، وهوت في بلج البحار
المحيطة ، فلما رأوا أمرهم يؤدي إلى الدخول تحت سهيل ودخل عليهم الليل
وأظلم وأدلم ، وحال بُخار البحر ودُجنته ونداء وزخره (ارتفاع مياهه)
بينهم وبين النجاة ، فلم يروا ما يهتدون به ، وهول البحر وأمواجه ترفعهم إلى
السحاب ، وتخفضهم إلى التراب ، وهم يجرون في قار وضباب طول ليهم .
وأصبح عليهم ، فلم يشعروا بالصباح لشدة ظلمة ما هم فيه ، واتصال قار البحر

مع ضباب الجو وغِلَظِ الرياح وكدورته . فلما طال عليهم الليل وهم يحرون في قبضة الهلكة ، قد حُكِّمَ عليهم الريح العاصفة والبحار الزاخرة والأمواج الهائلة ، ومركبهم يَشِيطُ (يصوت) ويئن ويتقعقع ويتتقعع توادعوا ، وصلى كل منهم إلى جهة على قدر معبوده ، لأنهم كانوا شيعاً من أهل الصين والهند والعجم والجزائر ، واستسلموا للموت . وجروا كذلك يومين وليلتين لا يفرقون فيها بين الليل والنهار . فلما كانت الليلة الثالثة وانتصف الليل رأوا بين أيديهم ناراً عظيمة قد أضاءت الأفق فخافوا خوفاً شديداً ، وفزعوا إلى رُبَّانهم ، وقالوا له : يا رُبَّان ما ترى هذه النار الهائلة التي ملأت الآفاق ، ونحن نجرى إلى سمتها ، وقد أحاطت بالآفاق ، والغرق أحب إلينا من الحريق ، فبحق معبودك إلا قلبت بنا المركب في هذه اللجة والظلمة ، لا يرى أحد منا الآخر ، ولا يدري ما كانت ميته ، ولا يتجرع لوعة صاحبه ، وأنت في حِلٍ وبِئِلٌ مما يجري علينا ، فقد متنا في هذه الأيام والليالي ألف ألف ميتة ، فبئس واحدة أَرْوَحُ ، فقال لهم : اعلموا أنه قد يجرى على المسافرين والتجار أهوال ، هذا أسهلها وأرحمها ، ونحن معشر الربانة علينا العهود والمواثيق أن لا نعرض سفينة إلى العطب وهي باقية لم يَسْجُرْ عليها قدر ، ونحن معشر ربانة السفن لا نطلعها إلا وآجالنا وأعمارنا معنا فيها ، فنعيش بسلامتها ونموت بعطبتها ، فاصبروا واستسلموا لملك الريح والبحر الذي يصرفهما كيف يشاء . فلما أيسوا من الربان ضجوا بالبكاء والعيول ، وندب كل منهم شجوه — وصار الربان إذا أمر مناديه أن ينادى رجاله بجذب حبل أو إرخائه ليصلح شأن المركب لا تسمع الرجال ذلك من دوى البحر وحس تلاطم الأمواج وهدير الرياح في القلوع والشرع والحبال وضجيج الخلائق . فأشرف المركب على التلف . . . وكان في المركب شيخ مسلم من أهل قادس من الأندلس قد طلع إلى المركب في ازدحام الناس عند طلوعهم ليلة السفر ، ولم يشعر به رُبَّان المركب ، وكان في زاوية من المركب مهجورة ، وهو مختف فيها ، خوفاً

أن يُعَلِّمَ به فيؤنِّب ويوبِّخ ، فلما رأى القومَ وما نزل بالناس وما هم عليه من الإخطار بأنفسهم ومركبهم ، وأنهم قد صاروا عوناً مع أهوال البحار على أنفسهم مسرعين لهلاكهم رأى أن يخرج إليهم ، فيكون من حاله معهم ما كان ، فخرج إليهم وقال لهم : ما شأنكم ، أنفتح المركب ؟ قالوا لا ، قال فانكسر السُّكَّان ؟ قالوا لا ، قال فركبكم البحر ؟ قالوا لا ، قال فما بشأنكم ؟ قالوا له كأنك لست معنا في المركب ، أما تنظر هول هذا البحر وأماواجه وظلمة الهواء الذي لم نر معه نهراً ولا شمساً ولا قمراً ولا نجوماً نهتدى بها ، وقد دخلنا تحت سهيل ، وحكمت البحار والرياح علينا ؟ وأشدّ ما علينا هذه النار التي نحن نجرى إليها ، وقد ملأت الأفق ، والغرق أهون علينا من الحريق ، وقد سألتا الربَّان أن يقلب المركب بنا في البحر والظلمة ، لا يرى واحدٌ منا إلى صاحبه ، ونموت غرقاً ولا نموت حرقاً يرى بعضنا بعضاً ونسمع ما تفعل النار فيه ، فقال : أوصلوني إلى الربَّان ، فأطلعوهم إليه ، فسلمَّ عليه بالهندية ، فرد عليه وتعجب منه ونظر إليه ، وقال له : من أنت من التجار أم من أتباعهم ، فلا نعرفك في رجال المركب ؟ قال له ما أنا من التجار ولا من أتباعهم ، قال فمن أطلعك ؟ وما بضاعتك ؟ قال له أما من أطلعني فلاني طلعت في جمهور الناس ليلة الإسراء (السفر) وأويتُ إلى مكان في المركب ، قال : من أين تأكل ومن أين تشرب ؟ قال كان يوضع كل يوم قريباً مني صحفة أرزيسمنٍ للملائكة المركب وماءٌ ، فكنت أتناوَلُ بذلك ، وأما بضاعتى فقربة عَجْوَة ، قال : فتعجب الربَّان منه ، واشتغل الناس بسماع حديثه عما كانوا فيه من الضجيج . وأصلح الرجال أدوات المركب ، ومشى فيهم مناد بتدبير الأقالع ، واهتدى المركب فقال الشيخ : يا ربَّان ما لهؤلاء القوم كانوا يبيكون ويُعْمَلون ؟ قال له : أما ترى ما نزل بهم من هول البحار والرياح والظلمة ، وأشدّ من ذلك ما نحن مدفوعون إليه من هذه النار التي ملأت الأفق ،

والله لقد ركبت هذا البحر وأنا دون البلوغ مع أبي ، وكان قد أذهب عمره في ركوبه ، وها أنا اليوم قد رمت ثمانين سنة ورأى فما سمعت بمن سلك هذا المكان ، ولا خبّر عنه ، فقال : يا ربّان لا بأس عليك ولا خوف ، نجّوتم بقدرة الله ، هذه جزيرة يحيط بها ويكنفها جبال ، ينكسر عليها أمواج البحار المحيطة بالأرض فتنتظر في الليل نار هائلة يخافها الجاهل ، فإذا طلعت الشمس ذهب ذلك المرأى وعاد ماء . . . فتباشر الناس وسكنوا إلى قول الشيخ وتناولوا طعامهم وشرابهم وذهب عنهم ما كانوا فيه من النغم والخوف ، وتناقص الريح ، وصار رهّواً (سهلاً) والريح رَخْواً وقدموا على الجزيرة مع شروق الشمس وأصبحت السماء . . . وتخيروا مُرسئى كَتينا (مسترا) ووردوا الجزيرة بجملتهم وكانوا يطرحون أرواحهم على الرمال ويتمرغون على الأرض شوقاً إليها ، ولم يبق منهم في المركب أحد .)

وهذا تصوير رائع لعاصفة من العواصف التي كانت تلم ببعض السفن حين يسقطون من المحيط الهندي إلى المحيط الهادى ، فتدفعهم الريح من كل جانب ، وتأخذهم الأهوال من كل فجّ ، ويصبحون كأنهم معلقون على وجه الماء بيد الأقدار ، فلما إلى قاع البحر ولما إلى النجاة بأرواحهم . ونغضى مع بَزْرُك فنقرأ عجائب وغرائب كهذه الحكاية التي يحكيها عن بعض السلاحف الكبيرة التي يُظنّ أحياناً أنها جزيرة في وسط البحر ، وهى سلحفاة عائمة ، يقول :

« إنه سمع بعض شيوخ المراكب يحدث أن مركباً خرج من بلاد الهند إلى بعض النواحي فذهب من بد صاحبه بقوة الريح ، وعيب المركب ، فقدموا إلى جزيرة صغيرة لم يجدوا فيها ماء ولا شجراً ، ودفعتهم الضرورة إلى المقام فيها ففرغوا حولة المركب إلى الجزيرة ، وأقاموا مدة ، حتى أصلحوا العيب ، وردوا الحمل إلى المركب ، وعزموا على الخطوف (السير) فاتفق

لهم يوم نوروز (عيد الربيع) فجمعوا من خشيبات معهم ونحوص وقماش وأوقدوه ، فتحركت الجزيرة من تحتهم ، وكانوا بقرب الماء ، فزمو أنفسهم إليه ، وتعلقوا بالقارب ، وغاصت الجزيرة ، فلحقهم من اضطراب البحر بحركتها ما أشرفوا به على الفرق ، وسلموا بعد تعب شديد وهول عظيم ، وإذا بها سلحفاة قائمة على وجه الماء ، ولما أحست بحر النار ولدعتها هربت . وسألت عن السبب في ذلك ، فقيل إن السلحفاة لها أيام في كل عام تطفو فيها على وجه الماء على سبيل الاستراحة من طول مقامها في كهوف الجبال ، وفي البحر غابات وأشجار هائلة أهول وأعظم من شجرنا فوق الأرض ، فتخرج على وجه الماء ، وتمكث أياماً وتسدر (يغيب وعيها) كالسكران ، فإذا رجعت إليها نفسها وسئمت ما هي فيه غاصت . . . »

ويخرج من حديث السلاحف إلى أحاديث طويلة عن حيات الهند وغيرها وحيوانات البحر وما رأى الملاحون من غرائب الطير ، وأثناء ذلك يقص أخباراً عن بعض البلدان في آسيا وإفريقية مما يلي البحار ، ويتحدث عن السكان وأوصافهم وعباداتهم ، كما يتحدث عن طُرف البحر من اللآلي وغير اللآلي ، وما صاده الغواصة منها . ومن طريف ما يرويه خبَر دُرّة تسمى الدرة اليتيمة ، بيعت لهارون الرشيد ، باعها له رجل من عُمان ، يقول :

« كان بعمان رجل يقال له مُسلم بن بشر ، وكان رجلاً مستوراً جميل الطريقة ، وكان ممن يجهز الغواصة في طلب اللؤلؤ ، وكانت بيده بضاعة ، فلم يزل يجهز الرجال للغوص ، ولا يرجع إليه فائدة ، حتى ذهب جميع ما كان يملكه ، ولم يبق له حيلة ولا ذخيرة ولا ثوب ولا شيء يجوز بيعه ، إلا خلخالاً بمائة دينار لزوجته ، فقال لها : أقرضيني هذا الخلخال لأجهز به ، فلعل الله تعالى يسهل شيئاً ، فقالت له : يا هذا الرجل لم تبق لنا ذخيرة ولا شيئاً نعول عليه ، وقد هلكنا واقتقرنا ، فلأن نأكل بهذا الخلخال أصلح من أن

نُتلفه في البحر ، فتلطف بها ، وأخذ الخلخال ، وصرفه ، وجهاز بجميعه الرجال إلى الغوص وخرج معهم . ومن شرط الغوص أن يقيم الغواصة فيه شهرين لا غير ، وعلى هذا يتشارطون ، فأقاموا يغوصون تسعة وخمسين يوماً ويخرجون الصدف ، ويفتحونه ، فلا يحصل لهم شيء . فلما كان في اليوم الستين غاصوا على اسم إبليس لعنه الله ، فوجدوا فيما أخرجوه صدفةً ، استخرجوا منها حبة لها مقدار كبير ، لعل ثمنها يوفي بجميع ما كان يملكه مسلم منذ كان إلى وقته . فقالوا هذا وجدناه على اسم إبليس لعنه الله ، فأخذها وبحثها ، وروى بها في البحر ، فقالوا له : يا هذا الرجل لم فعلت أنت هذا ؟ قد افترقت وهلكت ولم يبق لك شيء يقع بيدك مثل هذه الحبة التي لعلها تساوي آلاف الدنانير ، فتسحقها ؟ ! فقال : سبحان الله كيف أستحل أن أتفع بمال استخرج على اسم إبليس وأنا أعلم أن الله تبارك وتعالى لا يبارك فيه ، وإنما وقعت هذه الحبة بأيدينا ليختبرنا الله بها ويعلم من يعرف خبرها اعتقادي ، ولئن انتفعت بها ليقندين كلُّ أحد بي ، فلا يغوصون إلا على اسم إبليس لعنه الله ، فلأنم ذلك يعظم على كل فائدة وإن عظمت ، والله لو كان مكانها كل لؤلؤ في البحر ما تلبَّستُ به ، امضوا فغوصوا وقولوا باسم الله وبركة الله . فغاصوا على ما رَسَم لهم ، فما صَلَّي صلاة المغرب من ذلك اليوم وهو آخر يوم من الستين حتى حصل بيده دُرَّتَان ، إحداهما اليتيمة ، والأخرى دونها بكثير ، فحملهما إلى الرشيد ، وباع اليتيمة بسبعين ألف درهم والصغرى بثلاثين ألف درهم ، وانصرف إلى عُمان بمائة ألف ، فبنى بها داراً عظيمة ، واشترى ضياعاً واعتقر عقاراً ، وداره معروفة بعُمان . »

والكتاب مليء بحكايات عن أحوال الناس في جزائر المحيط الهندي وعلى ضفافه في الزنج وغير الزنج ، وهو في أثناء هذه الحكايات يعطينا كل ما تختص به البلاد من عادات ، وقد أطلال في وصف عبَّاد الهند وكهنتها

وبيوت عباداتها وبخريتها وثيابهم وتعاوليهم ، ومن طريف ما يقصه عن الفيلة
هناك هذا الوصف الدقيق ، قال :

« أخبرني بعضهم أنه شاهد ببعض بلدان الهند فيلة تتصرف في حوائج
أربابها وأن الفيل يُدْفَعُ إليه الوعاء الذي يشتري فيه الحوائج ، وفيه الودع
وهو نقد القوم وأنموذج الحاجة كائناً ما كانت ، فيكون معه في الوعاء شيء
من ذلك الجنس والنقد ، ويمضي إلى البقال ، فإذا رآه البقال نزل من جميع
شغله ولو كان على رأسه من يشتري منه كائناً من كان ، وأخذ الوعاء من الفيل
فعدّ الودع الذي فيه ، ونظر ما يريد بأنموذج متاعه ، ودفع إليه أجود ما عنده
من ذلك النوع بأرخص سعر ، ويستزيده فيزيده ، وربما عدّ البائع الودع ،
فغلط فيه ، فيشوشه الفيل بخروطومه ، فيعدّ البقال عدة ثانية ، ويمضي الفيل
بما اشتراه ، فربما استقله صاحبه ، فيضربه ، فيعود إلى البقال ، فيشوش
متاعه ويخلط بعضه ببعض ، فلما أن يزيده أو يردّ عليه الودع . وإن الفيل
الذي هذا صورته يكنس ويرش ويدق الأرض بمدقة ، يأخذها بخروطومه ،
فيدق ، ورجل يجمع عليه الأرز ، حتى يطحنه . ويستقي الماء وذلك أنه
يأخذ الوعاء الذي يستقي فيه الماء ، وفي الوعاء حبل مشدود يمدخل خرطوميه فيه
ويحمّله . ويقضي جميع الحوائج ، ويركبه صاحبه في حوائجه البعيدة .
ويركبه الصبي ، ويمضي عليه إلى الصحراء ، فيقطع الحشيش وورق الشجر
بخروطومه ، ويدفعه إلى الصبي ، فيجمعه في وعاء معه ، ويحمّله ، فيكون
ذلك طعامه ، وإنه إذا كان على هذه الصفة يبلغ مالا عظيماً ، وقيل عشرة
آلاف درهم . »

ويتعرض لصناعات أهل الهند والصين ، وخاصة ما يتقنه الأخيرون من
النقش والتصوير ، ومن الغرائب التي رواها عن إحكام الصينيين لصناعة
الورود والرياحين في نسيج بارع ما ضمنه هذه الحكاية عن بعض التجار قال :

« أدخلني باغ بور (ابن ماء السماء) ملك الصين إلى بستان بخانفو مقدار عشرين جريباً (مزرعة) فيه نرجس ومنثور وشقائق وورد وسائر الأنوار (الأزهار) فعجبت من اجتماع أنوار الصيف والشتاء في وقت واحد في بستان واحد ، فقال لي : كيف ترى ؟ فقلت ما رأيت حسنة إلا وهذا أحسن ولا طرفة إلا وهذا أطرف منها ، فقال لي : جميع ما ترى من الأشجار والأنوار معمولة من الحرير ، فتفقدته بعد أن قال لي هذا ، فوجدت الورق والأنوار من الحرير الصيني ، قد عمل وضمّر وحُبك ونسج وسوى على هذه الصورة ومن رآه لم يشك فيه أنه شجر ونور لا يغادر شيئاً . . . »

ويقص أحاديث طويلة عن طيور الجزائر الهندية وبلاد الزنج . ويختلط في قصصه الخيال بالحقيقة ، على نحو ما نجد في الخبر التالي . إذ يقول :

« إن بسفالة الزنج من الطيور ما يأخذ الوحش بمنقاره أو بمخالبه . ويحمله إلى الهواء ، ثم يرى به يموت وينكسر . ثم ينزل عليه فيأكله ، ولقد سمعت أن في بلاد الزنج طائراً ينقض على الساحفة الكبيرة . فيخطفها ويرفعها إلى الجو ويرى بها إلى الأرض على جبل أو صخرة ، فتتكسر ، فيسقط عليها فيأكلها ، ويأكل منها ، إذا وجد في النهار ، الخمس والست ، وأن هذا الطائر إذا رأى الإنسان هرب منه ، وفرّ من صورته لبشاعة خلق الناس في تلك الأرض . »

وطرافة هذا الخبر في خاتمته وما تحمل من تهكم ، وكثير من القصص الذي مر وقصص الكتاب يتضمن مواعظ ومعاني إنسانية . ومن هنا تأتي طرافة هذا الكتاب وحكاياته البحرية ، وإنه ليسوق فيها كل ما يحمله البحر من أصداف وأسماك وحيوانات ، وكل ما تحمله بروره وشطآنه وجزائره من غرائب الإنسان والطير والحيوان من قرود وغير قرود .

رحلة الفتية المغررين

رأينا الكتاب السابق يزخر بأخبار الملاحين والربابنة الذين جابوا المحيطين الهندي والهادي شرقي الصين . أما المحيط الأطلسي فإن العرب لم يلجئوا فيه ، إذ كان بعيداً عنهم ، ومع ذلك يُظَنّ أن عرب الأندلس اقتحموا هذا المحيط ، وإن كانوا لم يتغلغلوا فيه ، بل إنه يوجد بين الباحثين من يظن أنهم وصلوا إلى أمريكا قبل كولومبوس .

وليس بين أيدينا ما يدل دلالة قاطعة على أن الأندلسيين قاموا بذلك فعلاً ، على أنهم إن كانوا لم يقوموا به فإنهم هم الذين هيئوا له ، إذ قاموا برحلات مختلفة على الساحل الإفريقي الغربي ، وربما عرفوا جزائر أزورا وماديرا وكناري .

وأما من رحلاتهم في هذا المحيط الذي كانوا يسمونه بحر الظلمات رحلة رواها الإدريسي في كتابه « نزهة المشتاق » إذ روى أنه لا يزال معروفاً إلى عصره في أشبونة (لشبونة) رحلة فتية غرروا بأنفسهم ، فركبوا البحر المظلم ، وظلوا فيه أشهراً ، ثم عادوا ، وكان ذلك في القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادي) وكان لا يزال باسمهم إلى وقته دَرْبٌ في مدينتهم تُسمّى باسمهم ، وهم ثمانية رجال كانوا أبناء عمومة ، أعدوا مركباً كبيراً ، وزودوه بالماء والمتاع ، ثم دخلوا البحر مع هبوب الرياح الشرقية ، وأجروا فيه مركبهم نحو أحد عشر يوماً ، ولم يلبثوا أن انتهوا إلى بحر مجهول غليظ الموج كدر الروائح كثير الربوش (الأعشاب) والضباب ، فأيقنوا بالتلف ، وسارعوا إلى تغيير وجهتهم ،

فداروا إلى الجنوب ، وظلوا كذلك اثني عشر يوماً ، حتى وقعوا إلى جزيرة كثيرة الغنم ، فرسّوا عليها ونزلوا بها ، ووجدوا بعض أشجار التين ، ومياها جارية . فاطمأنوا إلى المكان ، وأخذوا شاة فذبحوها وأعدوها لطعامهم ، ولكنهم لم يستطيعوا أكلها لمرارة لحمها ، فعادوا إلى سفينتهم ، وأقلعوا إلى الجنوب ، وساروا اثني عشر يوماً فتراءت لهم جزيرة فيها عمارة وحرث ، فتزلوا بها ، ولم يلبثوا أن رأوا رجالا يحيطون بهم ، أجبروهم على التسليم ، وحلّوهم معهم إلى مدينة رأوا بها رجالا شقراً ، شعورهم مسبطة ، وهم طوال القدود لنسائهم جمال عجيب . واعتقلوهم في دار ، ظلوا بها ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع دخل عليهم رجل يتكلم بلسانهم العربي ، فسألهم عن حالهم ، وغايتهم ، ومن أين جاءوا . فأخبروه بقصتهم ، فطمأنهم ووعدهم خيراً ، وقال لهم إنه ترجان الملك وفي اليوم التالي أخذوا إلى حضرة هذا الملك ، وسئّلوا عن وجهتهم ، فقالوا إنهم خرجوا في البحر لرؤية عجائبه وخوارقه ، وليقفوا على نهايته . وضحك الملك حين سمع منهم ذلك ، وقال لترجمانه : أخبرهم أن أبي أمر طائفة من عبيده أن يسيروا في البحر ، ويحاولوا أن يعرفوا شيئاً عما في داخله ، وأنهم ساروا فيه شهراً ، ثم عادوا بخمسة حنين ، وقال الملك لترجمانه سَكِّنْ جاشهم ، ووعدهم خيراً . ثم أخذ بهم إلى معقلهم ، فظلوا فيه إلى أن نشطت الرياح الغربية ، فأخرجوهم في زورق بعد أن عصبوا أعينهم ، وجروا بهم في البحر نحو ثلاثة أيام ، وأخيراً ألقوا بهم إلى شاطئ أرض لم يكونوا يعرفونها ، وتركوهم مكتفين ، يبيكون مصيرهم .

وبينما هم في ضنك وسوء حال إذ سمعوا ضوضاء وجابة أناس ، فصاحوا بأجمعهم ، وسمعهم القوم ، فأقبلوا عليهم ، فوجدوهم على هذه الحال السيئة ، فحلّوا عنهم وثاقهم ، وسألوهم عن شأنهم ، فأخبروهم قصتهم ، وكانوا من البربر ، فأعلموهم أن بينهم وبين بلدهم مسيرة شهرين . وبعد أهوال ومخاطرات

وصلوا إلى بلدهم ، فأطلق عليهم الناس اسم الفتية المغرّرين ، يقصدون أنه غرّروا بهم في مجازفات ومغامرات غير مجدية .
 والمظنون أنهم وصلوا إلى بعض الجزائر في المحيط الأطلسي ، ولعلمهم وصلوا إلى جزائر أزورا وكناري ، وقد دُفعوا إلى إفريقية ، حيث التقوا بطائفة من البربر ، ثم عادوا إلى ديارهم بعد أن ذاقوا وبال رحلتهم في بحر الظلمات ، بحر الألفاظ والطلاسم . ونظن ظنا أن رحلات أخرى قام بها الأندلسيون بعد ذلك في هذا الاتجاه ، ولكنها لم يكتب لها النجاح ، شأنها شأن رحلة الفتية المغرّرين ، وكأنما كان القدر يتدّخر مفاجأة اكتشاف العالم الجديد لكولمبوس أعظم الرحالين والملاحين .

٥

عرائس البحر

تشارك الأمم القديمة في أساطير بحرية، تجعل البحار غاصة بأحياء، صورتهم بين الإنس والحيوانات المائية ، وألّهت بعض الأمم هذه الصور الخيالية . ولا تحول الإنسان من حياته الوثنية إلى حياته الدينية السماوية رافقته أساطيره القديمة . وتمتزج هذه الأساطير عند العرب بأخبارهم في مجاهل البحار وما يقصّونه عن هذه المجاهل ، بل إننا نجد أطرافاً منها منشورة في كتب الجغرافيا مثل كتاب البلدان لابن الفقيه ، ففيه هذا الخبر عن الإسكندرية ، يقول :

« كانت الإسكندرية بيضاء تضيء بالليل والنهار ، وكانوا إذا غربت الشمس لم يخرج منهم واحد من بيته ، ومن خرج اختطف ، وكان لهم راع

يرعى الغنم على شاطئ البحر ، وكان يخرج من البحر شيء فيأخذ من غنمه ، فكن له الراعى فى بعض المواضع ، حتى خرج ، فإذا جارية ، فتشبت بشعرها ، ومنعته ، فذهب بها إلى منزله ، فأنست بهم ، ورأته لا يخرجون بعد غروب الشمس ، فسألتهن عن ذلك ، فأخبروها أن من خرج فى ذلك الوقت اختطف ، فعملت لهم الطلسمات ، وكانت أول من وضع الطلسمات بمصر .

وفى كتابى القزوينى « آثار البلاد » و « عجائب المخلوقات » كثير من الأساطير التى تُروى عن عرائس البحر ، ومما يقصه عن الهند بحيرة يجرى وصفها فى كتابه « آثار البلاد » على هذا النحو :

« هى بحيرة مقدار عشرة فراسخ فى مثلها ، ماؤها ينبع من أسفلها ، لا يأتيا شيء من البحار ، وفى تلك البحيرة حيوانات على صورة الإنسان ، إذا كان الليل يخرج منها عدد كثير ، يلعبون على ساحل البحر ويرقصون ويصفقون باليدين ، وفيهم جوار حسناوات ، ويخرج منها أيضاً حيوانات على غير صورة الإنسان عجيبة الأشكال ، والناس فى الليلة القمراء يقعدون من بعيد وينظرون إليهم ، وكلما كان النظار أكثر كان الخارجون أكثر ، وربما جاءوا بالقواكه الكثيرة ، وأكلوها ، وتركوا ما فضل منهم على الساحل .. »

وتتضمن أسطورة عرائس البحر عند القزوينى وغيره من الجغرافيين ، فيجعلون لها جزيرة خاصة بها فى أقصى المحيط الهندى أو لعلها فى المحيط الهادى ، وقد مر بنا وصف القزوينى لهذه الجزيرة فى كتابه « آثار البلاد » ويجعل بعض كتّاب العرب هذه الجزيرة بين جزر واقى الواقى التى كانوا يقصون عنها أساطير كثيرة ، ويقدم لنا بزرّك بن شهریار فى كتابه « عجائب الهند » تعليلاً لاختصاص هذه الجزيرة بالنساء ، فيحكى عن إحداهن أنه كان قد تشبت بها بعض الملاحين ، ونقلها عن جزيرتها إلى البلاد العربية ، وأقامت المرأة معه وأسلمت ورزق منها الأولاد ! فسألها عن تلك الجزيرة ،

والسبب الذى جعلهن ينفردن بها دون الرجال ، فقالت :

« نحن أهل بلاد واسعة ومدن عظيمة محيطة بهذه الجزيرة ، ومسافة ما بين كل بلد من جميع بلادنا وبين هذه الجزيرة ثلاثة أيام بلياليها ، وكل من فى أقالمتنا ومدننا من الملوك والرعايا يعبدون النار التى تظهر لهم فى جزيرتنا ، ويسمونها بيت الشمس ، لأن الشمس تشرق من طرفها الشرقى وتغرب فى جانبها الغربى فيظنون أنها تبيت فى هذه الجزيرة . . . فيعبدونها ويقصدونها بصلاتهم وسجودهم من سائر الجهات . ثم إن الله سبحانه وتعالى جعل المرأة فى بلادنا أول بطن ذكراً ، وثانى بطن أنثىين ، وكذلك ياقى عمرها ، فها أقل الرجال فى بلادنا وأكثر النسوان . فلما كثرت وأردن أن يغلبن على الرجال ، صنعوا لهن المراكب وحملوا منهن آلافاً ، وطرحوهن فى هذه الجزيرة ، ويقولون للشمس : يا ربهن أنت أحق بما خلقت ، وليس لنا بهن طاقة . . . وإن بلادنا فى البحر الأعظم تحت سهيل لا يقدر أحد أن يبحىء إلينا . . . خوفاً من أن تشربه البحار ، وذلك تقدير العزيز العليم ، تبارك الله أحسن الخالقين » والنساء نساء حقيقية فى هذه القصة ، ولكن بجانب هذه القصة فى « عجائب الهند » قصة أخرى تعود بهن إلى عالم الماء ، وتسمى جزائرهن جزائر الخوت ، فقد حدثت بعض الملاحين عن أبيه ، قال :

« أسريت فى مركب لى كبير ، ونحن طالبون جزيرة قنصور . . . وأدخلنا التيار بين جزائر ، فأسندنا المركب إلى واحدة منهن على ساحلها نسوة يعمن ويسبحن ويلعبن ، فأنسنا بهن ، ولما قربنا منهن تهاربين فى الجزيرة . وتمضى الحكاية فتزعم أن هذا الملاح ومن معه من التجار بادلوا أهل الجزيرة عروضهم من الحديد والنحاس والكحل والحرز والثياب بما عندهن من الأرز والغنم والدجاج والعسل والسمن ، ثم طلبوا بضائع منهن يشترونها ، فقلنا ليس عندنا إلا الرقيق ، فاشتروا طائفة كبيرة ، ولكن لم يكادوا يمضون

في البحر حتى تطاير هذا الرقيق تطاير الخراد والمركب تجرى في موج كالبحال ، وكانت لا تزال بين القوم سيارية في قاع السفينة ، فأمسك بها الملاح وأقعد لها وأقامت معه ثمانى عشرة سنة مقيدة ، واستولدها ستة أولاد . كان منهم راوى القصة ! ويزعم أنه مات أبوه ففكوا عن أمهم قيودها رحمة بها وإبراراً لها وحنوا عليها ، يقول :

« فخرجت كأنها الفرس السابق ، وانطلقنا خلفها ، فلم ندركها ، وقال لها بعض من قرب منها : تمضين وتخلّين أولادك وبناتك . فقالت : ما أعمل لهم ، وطرحنت نفسها في البحر ، وغاصت كأقوى حوت يكون ، سبحان الخالق البارئ المصور . »

وعلى هذا النحو نجد عند العرب أساطير بحرية تشبه من بعض الوجوه الأساطير التي كانت معروفة عند اليونان القدماء ، فكثيراً ما آمنوا بأن بطلاً من الأبطال ولدته الآلهة التي تحيط بجزيرتهم وترفرف فوق مياهها ، وقد أشار هوميروس في قصته «الأوديسة» إلى ساحرات يسمين «سيرينا» يُقمن بأعلى الصخور في بعض الجزائر ويغنين غناء رائعاً ساحراً ، ويسمعهن البحارة ، فيذهلون عن سفنهم ، ويتركونها تجرى مع الرياح إلى أن ترتطم ببعض الصخور ، وتتحطم تحطماً . حينئذ يشوبون إلى رشدهم ويعرفون أنهم وقعوا في حبال مكتر هؤلاء الساحرات وكَيْدِهِنَّ ، وكان كيداً عظيماً !

الفصل الثالث

رحلات في الأمم والبلدان

١

رحلات مبكرة

لعل أول رحلة في تاريخ العرب الإسلامي هي رحلة فتوحاتهم الكبرى ، فقد خرجوا من جزيرتهم ، وطافوا بأركان العالم الوسيط في آسيا وإفريقية ، وجابوا البحر ، ودخلوا الأندلس ، واقتحموا جبال البرانس وتصايحوا بلغتهم وصلاتهم وأذانهم على الأبواب الجنوبية الغربية لفرنسا ، ونزلوا صقلية وحولوها إلى سلطانهم . وكانت للعلاقات التجارية قائمة بين البلدان التي فتحوها وبين الأمم والممالك المختلفة في آسيا وأوربة . وظلت هذه العلاقات ، وقامت معها علاقات سياسية ، ورغبات مختلفة في نفوس الأفراد للضرب في مجاهل الأرض واكتشاف ما وراء العالم الإسلامي من أمم وشعوب وأحوال عمران . وكان للتجار اليد الطولى في هذا الارتياح يبتغون الرزق في مناكب الأرض وأقاليمها البعيدة .

وفي أخبار رحلاتهم البحرية السابقة ما يدل على أنهم طافوا حول شواطئ إفريقية الشرقية ، وكادوا لا يتركون جزيرة في المحيط الهندي إلا نزلوها واتجروا فيها ، وبلغوا بتجارتهم سواحل المحيط الهادي ونزلوا ببعض جزائره ، كما نزلوا في الصين . وهم كذلك نزلوا في الجزائر المنتشرة ببحر الروم ، وبعض جزائر المحيط الأطلسي من مثل جزائر كناري .

وإذا كانوا قد اقتحموا البحار من حولهم ، فإنهم اقتحموا الأرض المعروفة

لهم ، فجابوا أواسط إفريقيا وتوغلوا في مجاهلها ، ووضعوا أقدامهم في أوربة ومرتفعاتها الشرقية والجنوبية وتوغلوا فيها ، كما توغلوا في آسيا وصحاريها ومرتفعاتها الوسطى ، وطوّفوا بالهند وصحراء جوبي ومروج منغوليا إلى الصين .

ولم يدوّن العرب أخبار الرحالة الأوائل ، ولكننا لا نصل إلى القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) ونقرأ كتبهم الجغرافية والتاريخية حتى نجدهم قد عرفوا معرفة دقيقة أخبار الأمم من حولهم ، مما يدل على كثرة الراجلين والسائحين . ومن أقدم من يذكرهم في هذا الباب سلام الترجمان الذي يقال إن الخليفة الواثق (٨٤٢ - ٨٤٧ م) أرسله في بعثة إلى بلاد الصين ليشاهد السدّ الذي بناه الإسكندر في ديار يأجوج ومأجوج . وعادت البعثة نقص على الناس أخبار الصين وعجائبها . ومن هؤلاء الرحالة ابن وهب القرشي الذي يقال إنه استطاع لقاء ملك الصين وعرض عليه الملك صوراً للأنبياء ، ومن بينها صورة للرسول صلى الله عليه وسلم . ويقال إن هذه الرحلة كانت في سنة ٨٧٠ م . وهذان الرحّالان إنما هما رمز لكثيرين وراءهما طوفوا في آسيا وإفريقية ، يتجرون في العروض وفي الرقيق . وإذا كان العرب قد نشروا الإسلام عن طريق السيف في إيران والهند وشمال إفريقيا فإن التجار من ورأيهم نشروه في أقاليم لم يصل إليها الفاتحون في آسيا كالصين وفي إفريقيا كالسودان وعلى طول شاطئها الشرقي . وكثيراً ما كانت هذه الأقاليم الجديدة تطلب بعثات دينية من بغداد ، تعلم الناس فروض الإسلام وما شرعه الله لمصلحتهم في دنياهم وآخرتهم .

ومن أقدم هذه البعثات بعثة طلبها ذلك البلغار من الخليفة المقتدر ، وكان كثير من البلغار قد دخلوا في الإسلام ، وكانوا يقيمون حينئذ في حوض نهر الفولجا ، أو كما يسميه العرب نهر أنلا . وأرسل الخليفة المقتدر سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م بعثة جعل رياستها لابن فضلان . وقام بمهمته خير قيام ، ثم

عاد يعد مدة إلى بغداد ، فوضع كتاباً في وصف رحلته إلى القوم ، وألم بالأمم
دقيقاً بأحوالهم وعاداتهم وبكل ما يديارهم من مظاهر الحضارة وال عمران ،
ولم يصف شعب البلغار وحده ، بل وصف أيضاً الخزر والروس . ونشر
هذا الكتاب أو هذه الرسالة بعض المستشرقين في القرن الماضي ، وهما جاء
فيها عن الروس :

« رأيت الروسية وقد وافوا بتجاراتهم ، فزلوا على نهر أتل ، ولم أر أتم
أبداناً منهم ، كأنهم النخل ، شقر حمر ، لا يلبسون القراطق (القمصان)
ولا الخفاتين (ضرب من الثياب) ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به
على أحد شِقَيْهِ ، ويخرج إحدى يديه منه ، ومع كل واحد فأس وسكين
وسيف . . . وكل امرأة منهم على ثديها حق مشدود من حديد أو من نحاس
أو من فضة أو من ذهب على قدر حال زوجها »

وعرض لكثير من أحوالهم التي تدل على تأخرهم ، ووقف طويلاً عند
وصف حرقهم لموتاهم ، واحتفالاتهم لحرق رؤسائهم ، وما يصنعون في ذلك
من رسوم غريبة .

وهذه الرحلة أيضاً إنما هي رمز لرحلات العرب في أوربة . ونحن لا نقرأ
ما كتبه المسعودي في مروج الذهب ، وقد عاش في القرن الرابع الهجري
(العاشر الميلادي) حتى نؤمن بأن العرب قد توغلوا في كل الأقاليم من حولهم ،
فعرفوا جغرافيتها وتاريخها وأحوال سكانها معرفة دقيقة . ومن هذه المعرفة ملأ
المسعودي كتابه المذكور وكتبه الأخرى الكثيرة بأخبار الأمم الأجنبية والإسلامية ،
وكان هو الآخر رحالة ، جاب المحيط الهندي وشواطئه في إفريقيا وجزائره
الكثيرة ، وزار الهند وبلاد الصين وبحر قزوين وآسيا الصغرى والشام ومصر
وبلاذ العرب . وتختلط في كتاباته مشاهداته بتلك البلدان بمشاهدات غيره
من الرحالة والسائحين .

أبو حامد الأندلسي في شرق أوربة

أحد الرحالة الأندلسيين ، عاش أكثر حياته في القرن السادس الهجري (٤٧٤ - ٥٦٤ هـ / ١٠٨٠ - ١١٦٩ م) وشغف بالرحلة ، فطاف بإفريقية الشمالية وصقلية ، وزار مصر والشام والعراق ، وتحول إلى ناحية البحر الأسود (بحر الخزر) وتوغل في بلاد البلغار على ضفاف نهر القولجا وبلاد الصقالبة وإقليم باشغرد الواقع بين البلغار والقسطنطينية . وسجل مشاهداته في هذه الأقاليم والبلدان بكتابه « تحفة الأصحاب ونخبة الأعجاب » وله كتاب آخر يسمى « المعرب في عجائب المغرب » .

ونشر بعض المستشرقين ما شاهدته في شرق أوربة ، وقد روى كثيراً من الأخبار عن الأقاليم الممتدة شمالى البلغار إلى المحيط المتجمد الشمالى ، وهو يسميها « ويسوا » و « يورا » . وكان الإسلام ينتشر في البلغار ، وقال إن سبب انتشاره هناك أن مسلماً متطبباً دخل هناك ، وكان الملك وزوجه مريضين قد يُشس من شفائهما ، فعرض عليهما الإسلام إن هو شفاهما من مرضهما ، فأجاباه : نعم ، فعالجهما ودخلا في دين الإسلام ، وأسلم معهما أهل تلك البلاد . وكان البلغار حينئذ يتزلون في أواسط حوض القولجا ، وكان لهم مدينة تسمى باسمهم ، وقال أبو حامد إن طول النهار يبلغ عندهم عشرين ساعة في الصيف وليلهم يبتى أربع ساعات ، وفي الشتاء يتعكس ذلك ، والبرد عندهم شديد جداً . والحر في الصيف كذلك شديد ، أشد مما يكون في كل الدنيا . ونحن نسوق طائفة من الأخبار التي رواها عن البلغار

وعما فوقهم من بلاد ويسوا ويورا ، وما يحاذيهم من بلاد الصقالية ، قال : « ويوجد ، في أرض البلغار من عظام قوم عاد ، السنّ الواحد عرضه شبران وطوله أربعة أشبار ، ومن رأسه إلى منكبه خمسة أبواع ، ورأسه مثل القبة العظيمة ، وهو هناك كثير . وتوجد تحت الأرض أنياب الفيلة و (الناب) أبيض كالثلج ، ثقيل كالرصاص ، الواحد مائتا مَن (المن نحو رطلين) وأكثر وأقل ، لا يُدْرَى من أى حيوان هو ، يُقَطَّعُ ويحمل إلى خوارزم وخراسان ، وتتخذ منه الأمشاط والحِقاك وغير ذلك كما يتخذ من العاج ، وهو أقوى من العاج لا ينكسر .

وفوق هذه الولاية أم لا عدد لهم يعطون الجزية للملك بلغار . . . ولهم ولاية تؤدي الخراج بينهم وبينها مسيرة شهر ، يقال لها « ويسوا » وولاية أخرى يقال لها « يورا » فيها يصطاد القندز والقاقم والسنجاب الجيد . والنهار يكون هناك في الصيف اثنتين وعشرين ساعة . ومنهم تجيء جلود القندز الجيد الفائق . والقندز : حيوان عجيب يكون في الأنهار العظام ويتخذ بيوتا في البر إلى جانب النهر .

يقول : ووراء ويسوا ولاية تعرف بيورا على بحر الظلمات يكون النهار عندهم في الصيف طويلا جداً ، حتى إن التجار يقولون إن الشمس لا تغيب مقدار أربعين يوماً ، وفي الشتاء أيضاً يكون الليل طويلا مثل ذلك . والناس يحملون من بلاد الإسلام سيوفاً تُستخدَمُ في زنجان وأبهر وتبريز وأصفهان ، ولا يتخذون لها آلة ولا حلية إلا حديداً كما يخرج من النار . . . وذلك السيف هو الذي يصلح أن يحمل إلى يورا . وأهل يورا ليس عندهم دواب ولا مواش إلا أشجاراً عظيمة وغياضاً يكثر فيها العسل ، ويكثر عندهم السمّور جدا ، ويأكلون لحمه . والتجار يحملون إليهم هذه السيوف وعظام البقر وعظام الغنم ، ويأخذون أثمانها جلود السمّور ، ولهم في ذلك ربح كثير . والطريق

إليهم في أرض لا يفارقها الثلج أبداً . ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحاً ينحتونها ، طول كل لوح باع ، وعرضه شبر ، مقدم ذلك اللوح ومؤخره مرتفعان عن الأرض ، وفي وسط اللوح موضع يضع الماشي فيه رجله ، وفيه ثقب قد شُدَّوا فيه سيوراً من جلود قوية يشدونها على أرجلهم ، ويسقرون [الرجل] بين اللوحين اللذين يكونان في رجله بشندال طويل مثل عنان الفرس ، يمسكه في يده الشمال ، وفي يده اليمنى عصاً بطول الرجل . وفي أسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوة بصوف كثير مثل رأس الإنسان خفيفة . ويعتمد على تلك العصا فوق الثلج ، ويدفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملاح في السفينة . فيذهب على ذلك الثلج بسرعة ، ولولا تلك الحيلة لم يمكن أحداً أن يمشي هناك البتة ، لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبّد ، وأي حيوان مشى عليه يغوص فيه فيموت إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب فإنها تمشي عليه بخفة وبسرعة . والثعالب والأرانب في تلك البلاد تبيض جلودها ، حتى تكون مثل القطن ، وكذلك الدثاب أيضاً تكون في ناحية بلغار تبيض جلودها في زمن الشتاء .

وتلك السيوف (يقصد السيوف التي تصنع في بلاد الإسلام بدون نصاب ولا حلية) تُحْمَلُ من بلاد الإسلام إلى بلغار ، وفيها ربح كثير ، ثم يحملها البلغاريون إلى «ويسوا» موضع القنطرة ، ثم أهل ويسوا يحملونها إلى «يورا» يشترونها بجلود السمور وبالجوارى والغلمان . ثم كل آدمي يكون هناك يحتاج كل سنة إلى سيف يلقيه في بحر الظلمات . فإذا ألقوا السيوف أخرج الله لهم من البحر سمكة مثل الجبل العظيم تطردها سمكة أخرى أكبر منها أضعافاً مضاعفة ، تريد أكلها ، فتفرّ الصغرى من الكبرى ، فتقرب من البر وتصير في موضع لا يمكنها الرجوع [منه] إلى البحر ، فتبقى هناك ، وترجع الكبرى إلى البحر ، ويدخل أهل يورا إلى البحر في السفن ويقطعون من جوانبها ، وليس عند

السمة من ذلك حس ولا تتحرك ، فيملثون بيوتهم من لحمها ويصعدون على ظهرها وهي كالجبل العظيم . « و يروى أبو حامد هذه الأسطورة :
 « ولقد حُدِّثْتُ ببلغار أن سمكة من تلك السمك في بعض السنين ثقبوا أذنبا ، وجعلوا فيه حبالا ، وجَرَّوا تلك السمكة ، فانفتح أذنبا ، وخرج من داخلها جارية تشبه الآدمية ، بيضاء حمراء الخدين ، سوداء الشعر ، من أحسن النساء ، فأخذها أهل يورا وأخرجوها إلى البر ، وتلك الصورة تضرب وجهها وتنتف شعرها وتصيح ، وقد خلق الله لها في وسطها مثل جلده أبيض ، كالثوب الصفيق القوى ، من وسطها إلى ركبتيها يستر عورتها ، كأنه إزار مشدود على وسطها ، فأمسكوها حتى ماتت عندهم ، وقدرة الله تعالى لا نهاية لها . » ويقول :

« وأهل ويسوا ويورا يُمَسَّعُونَ في الصيف من دخول بلاد بلغار ، لأنه إذا دخل في تلك الديار منهم واحد في شدة الحر يبرد آلهاء والماء مثل الشتاء ، وتفسد على الناس زروعهم ! وهذا مجرب عندهم ! وقد رأيت في بلغار زمان الشتاء جماعة منهم حمر الألوان زرق العيون ، شعورهم مثل الكتان إلى البياض ، يلبسون ثياب الكتان في ذلك البرد ، ويكون على بعضهم فراء من جلود القندز الحياد . وشعر ذلك القندز إلى خارج مقلوباً ، ويشربون ماء الشعير الحامض مثل الخل ، فيوافقهم حرارة مزاجهم ، لأكلهم لحم القندز والسنجاب والعسل . وفي بلادهم نوع من الطير الكبير ، لها مناقير طوال ، مقلوبة على اليمين وعلى الشمال ، الأعلى على اليمين ستة أشبار ، وعلى الشمال ستة أشبار مثل لام ألف . . . وإذا وقعت بيضة هذا الطير على الحمىد أو الثلج أذابته كما تذيب النار . »

ويعضى بنا أبو حامد إلى بلاد الصقالبة ، و يروى من أخبارهم عجائب وطرائف ، وهو يستهل حديثه على هذا النحو :

« ولما دخلتُ إلى بلاد الصقالبة خرجت من بلغار وركبت سفينة في نهر الصقالبة وماؤه أسود مثل ماء بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) كأنه الحبر ، وهو مع ذلك حلو طيب صاف ، ليس فيه سمك ، وفيه الحيات السود الكبار ، بعضها على بعض ، أكثر من السمك ، لا تؤذى أحداً . وفيه حيوان مثل السنَّور الصغير ، له جلد أسود يسمى سَمَّور الماء تحمل جلوده إلى بلغار . . . ولما وصلت إلى بلادهم رأيت بلاداً واسعة ، كثيرة العسل والخنطة والشعير والتفاح الكبير . . . ويتعاملون بينهم بجلود الستجاب القديم الذي لا شَعْر عليه . . . وللصقالبة سياسات عظيمة ، إذا تعرض أحد لخاوية غيره أو ولده أو دابته أو تعدى بأى شيء من التعدى كان ، أخذ من المتعدى جملة من المال ، فإن لم يكن له مال بيع أولاده وبناته وزوجته في تلك الخناية ، فإن لم يكن له أهل ولا أولاد بيع هو ، فلا يزال عبداً يخدم من يكون عنده حتى يموت . . . وبلادهم آمنة ، وإذا عامل المسلم منهم أحداً وأفلس الصقلبيّ بيع هو وأولاده وداره ، ويعطى لذلك التاجر دينه . والصقالبة شجعان ، وهم على مذهب الروم في النصرانية ، نسطورية . . . وحدثت عنهم أنهم كلَّ عشر سنين يكثر السحر [عندهم] وتفسد عليهم نساؤهم بالعجائز السحرة ، فيأخذون كل عجوز في ولايتهم ، فيشدون أيديهن فأرجلهن ويلقيهن في النهر ، فكل من رسبت من العجائز في الماء تركوها ، وغلموا أنها ليست بساحرة ، والتي تطفو على الماء يحرقونها بالنار . »

ويترك أبو حنبل إقليم الصقالبة إلى إقليم باشغرد ، ويقول إنه فوق بلاد الصقالبة بأربعين يوماً ، بين رياض وأشجار عالية ، ويأخذ في سرد الأخبار عن هذا الإقليم ، ومما يقول فيه :

« ملك باشغرد يسمى كزالي ، وملكه أعظم من ملك صاحب الروم أضعافاً مضاعفة ، لا تُحصى جنده ، وولايته أكثر من ولاية الروم عشرين يوماً

وأكثر ، وهو على مذهب الإفرنج (يريد أنه مسيحي) لأنه تزوج منهم ،
ويغزو بلاد الإفرنج ويستبهم ، وجميع الأمم يخافون من شره لكثرة جنده وشدة
بأسه . . . وفي باشغرد بقر وحشية كبار أمثال الفيلة ، جلد الواحد منها حمل
بغلين قويين ورأسه حمل عَجَلَة ، يصطادونه ويسمى التَّيْشْتَل وهو من أعجب
الحيوان ، طيب اللحم ، سمين ، وقرونه كبار طوال مثل أنياب الفيلة » .
ويعود أبو حامد من هذه الديار مولياً وجهه نحو الشرق ، ويصل إلى
إقليم خوارزم ، ويفيض في الحديث عن هذا الإقليم . وواضح مما نقلنا عنه
أن ملكة النقد للأخبار لم تكن واسعة عنده ، ويتبين ذلك مما رواه عن خروج
فتاة من أذن سمكة . وكان حرياً أن يكذب هذا الخبر ، ولكن لعله جاء به
على سبيل القصص والإطراف بالحكايات . ومن أطرف ما مر في حديثه
عن إقليم يورا وصفه لسيرهم على الثلج وتنقلهم على سطحه بصورة مشبهة
لما تعرضه علينا دور الخيالة .

٣

أسامة بن منقذ بين الصليبيين

أحد أبطال المعارك الصليبية كان أديباً شاعراً ، عاش في القرن السادس
للهجرة (الثاني عشر الميلادي) وعمر طويلاً (٤٨٨ - ٥٨٤ هـ / ١٠٩٥ -
١١٨٨ م) وهو من قلعة شينزر شمال الشام وكان آباؤه أمراء هذه القلعة ،
وكان ينازلهم الصليبيون ، ولهم معهم وقائع كثيرة ، وجعلت أسامة في غير موقعة .
ونزل مصر ، وأقام فيها مدة في أثناء الحكم الفاطمي ، وطاف ببلاد العرب
والجزيرة ، وكانت عنده موهبة قصصية ، وكان دقيق الملاحظة ، فسجل الحوادث

التي عاش فيها بمسقط رأسه ، وبمصر ، وقص كثيراً عن الصليبيين ، وكانوا يجلبونه ، واتخذ منهم غير صديق .

وكتابه « الاعتبار » هو المسرح الذي اختاره لتسجيل مذكراته ، وقد قصر الباب الأول فيه على حروبه وأسفاره إلى دمشق ومصر ومشاهداته للصليبيين في دياره أثناء الحرب وفي السلم . وهنا وهناك ينثر طرائف ما شاهده بنفسه في حروبهم ، وكيف كان أهل الشام يذودون عن وطنهم بالنفس والنفيس . ومن أطرف ما في الكتاب حديثه عن طبائع الإفرنج وأخلاقهم ، وهو يصور ذلك في قالب قصصى يوضح لنا فيه تأخرهم الثقافي وأنه لم يكن عندهم شيء من الفكر أو الفلسفة يقتبسها العرب عنهم ، وسخر من طرقهم في القضاء ، وما يعتمدون عليه في محاكماتهم من المبارزة ، ولاحظ على رجالهم نقص الغيرة على نساءهم ، وندعه يتحدث بنفسه ، راوياً عجائبهم في الطب وغيره ، يقول :

« ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة (بلدة في شمالي لبنان) كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه ، فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت ، فما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له : ما أسرع ما داويت المرضى ! قال : أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دُمْلَةٌ وامرأة قد لحقها نشاف (لعله جفاف اللبن في الرضاعة) فعملت للفارس لُبَيْخَةً ، ففتحت الدملة وصلحت ، وحيت المرأة ورطب مزاجها ، فجاءهم طبيب إفرنجي ، فقال لهم هذا ما يعرف شيء يداويهم ! وقال للفارس أيما أحب إليك ، تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة ، قال : أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً ، فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر ، فحط ساقه على قطعة خشب كبيرة ، وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة ، تقطعها ، فضربه ، وأنا أراه ، ضربة واحدة ، فما

انقطعت ، وضربه ضربة ثافية ، فسلك منح الساق ، ومات من ساعته .
وأبصر المرأة ، فقال : هذه امرأة في رأسها شيطان . . . احلقوا شعرها ،
فحلقوه ، وعادت تأكل من ماكلهم : الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف .
فقال الشيطان قد دخل في رأسها ، فأخذ الموسى وشق في رأسها صليبا ، وسلخ
وسطه حتى ظهر العظم وحكته بالملح ، فماتت في وقتها ، فقلت لهم : بقی لكم
إلى حاجة ؟ قالوا لا !

وكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجنبى أخلاقاً من الذين
قد تبلدوا (سكنوا البلاد) وعاشروا المسلمين .

وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة ، يكون الرجل منهم يمشى هو
وامراته يلقاه رجل آخر ، فيأخذ المرأة ويعتزل بها ، ويتحدث معها والزوج
واقف بناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فإذا طوّلت عليه خلّاها مع
المتحدث ومضى .

ودخلتُ في الحمام بمدينة صور ، فجلست في خلوة فيها ، فقال لى
بعض غلماني : في الحمام معنا امرأة . فلما خرجت جلست على المصاطب ،
وإذا التي كانت في الحمام قد خرجت ، وهي مقابلي قد لبست ثيابها ، وهي
واقفة مع أيها ، ولم أتحقق أنها امرأة ، فقلت لواحد من أصحابي : بالله أبصر
هذه امرأة هي ؟ . . . فالتفت إلى أبوها ، وقال : هذه ابنتي ماتت أمها ،
وما لها من يغسل رأسها ، فأدخلتها معي الحمام وغسلت رأسها ، فقلت :
جيدٌ ما عملت . هذا لك فيه ثواب .

وحضرتُ بطبرية في عيد من أعيادهم ، وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح ،
وقد خرج معهم عجوزان فانيتان أوقفوهما في رأس الميدان ، وتركوا في رأسه
الآخر خنزيراً سمّطوه وطرحوه على صحرة . وسابقوا بين العجوزين ، ومع كل
واحدة منهما سريرة (طائفة) من الحيلة يشدون منها ، والعجوزان تقومان وتقعان

على كل خطوة ، وهم يضحكون ، حتى سبقت واحدة منهما ، فأخذت ذلك
الخنزير في سيقها .

وشهدت يوماً بنابلس ، وقد أحضروا اثنين للمبارزة . وكان سبب ذلك
أن حرامية من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس ، فاتهموا بها رجلاً من
الفلاحين ، وقالوا : هو دلّ الحرامية على الضيعة ، فهرب ، فأنفذ الملك
(ملك أورشليم) من قَبَضَ أولاده ، فعاد إليه ، وقال أنصفني أنا أبارز الذي
قال عني : إني دللت الحرامية على القرية ، فقال الملك لصاحب القرية
المُقَطَّع (الإقطاعي) أحضر من يبارزه ، فضى إلى قريته ، وفيها رجل حدّاد ،
فأخذه وقال له : تبارز إشفاقاً من المقطع على فلاحيه ، أن يقتل منهم واحد ،
فتخرب فلاحته . وشاهدت هذا الحداد ، وهو شاب قوى . . . يمشى ويجلس ،
يطلب ما يشربه ، وذلك الآخر الذي طلب البراز شيخ إلا أنه قوى النفس
يزجر ، وهو غير محتفل بالمبارزة ، فجاء البسكند (Viscount) وهو شحنة
البلد (الذي يضبطها من جهة الحاكم) فأعطى كل واحد منهما العصا والترس ،
وجعل الناس حولهم حلقة ، والتقيا ، فكان الشيخ يلز (يشد) ذلك
الحداد وهو يتأخر ، حتى يلجئه إلى الحلقة ، ثم يعود إلى الوسط ، وقد تضاربا
حتى بقيا كعمود الدم . فطال الأمر بينهما والبسكند يستعجلهما . ونفع الحداد
إدمانه على ضرب المطرقة ، وأعيا ذلك الشيخ ، فضربه الحداد ، فوقع ،
ووقعت عصاه تحت ظهره ، فبرك عليه الحداد يداخل أصابعه في عينيه . . .
ثم قام عنه ، وضرب رأسه بالعصا حتى قتله . فطرحوا في رقبته في الوقت حبلاً
وجروه . وجاء صاحب الحداد وأعطاه غفارة (رداء للرأس) وأركبه خلفه وأخذه
وانصرف ، وهذا من جملة فقههم ، لعنهم الله .

وأسامة بذلك يعطينا صورة واضحة عن حياة الصليبيين حين استقروا في
الشام وكونوا بها مستعمراتهم التي أزالهم عنها فيما بعد صلاح الدين

وخلفاؤه من الأيوبيين والمماليك، وقد قصّ طرائف عن بطولة النساء من العرب في كفاح القوم ، وكيف كُنَّ يوثرن الموت على الوقوع أسيرات في أيدي الصليبيين وما يقصه من ذلك هذه الحادثة ، إذ يقول :

« كان في جند الجسّس رجل كردى ، يقال له أبو الجيـش ، له بنت اسمها رفول ، قد سباهـا الإفرنج ، وهو قد توسوس عليها يقول لكل من لقيه يوماً : سبيتُ رفول ! فخرجنا من الغد نسير على النهر ، فرأينا في جانب الماء سواداً ، فقلنا لبعض الغلمان : اسبحْ وأبصرْ ما هذا السواد . فضى إليه ، فإذا ذلك السواد رفول عليها ثوب أزرق، وقد رمت نفسها من فوق فرس الإفرنجى الذى أخذها، ففرقت ، وعلق ثوبها في شجرة صفصاف ، فسكنت لوعة أيها أبى الجيـش . »

٤

عبد اللطيف البغدادى فى مصر

عالم بغدادى كبير كان واسع الثقافة ، درس الفلسفة والطب وعلوم الدين واللغة ، وترك مؤلفات كثيرة فى كل فن . ولد سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦١ م وطاف بالشام ومصر ، وأقام فى الأخيرة فترة يغلب على الظن أنها كانت فيما بين سنتى ٥٩٧ ، ٥٩٩ هـ (١٢٠٠ ، ١٢٠٢ م) فإنه وصف قحطاً أصاب مصر فى تلك المدة ، وقد بالغ فى وصفه ، وقال إن الناس كانوا يأكلون لحوم الموتى !

وهذا الوصف ضمنه كتابه « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر » . والكتاب طُرْفَةٌ من طُرُف كتب الرحلات ، فإنه كان

ناقدًا بصيرًا ، وعالمًا فيلسوفًا ، فلم يصف ما شاهده فقط بل درسه ومحصّنه ، وقد قسم الكتاب إلى مقالتين ، وقسم المقالة الأولى إلى ستة فصول ، تحدث في الفصل الأول عن خواص مصر العامة ، فقال إنها واد تكتنفها الجبال والصحاري ، والنيل ينساب فيها ، ويتشعب بأسفل الأرض ، وجميع شعبه تصب في بحر الروم . وذكر للنيل خاصتين طول مسافته وفيضانه في نهاية الصيف ، ولاحظ أن أرض مصر رملية ، ولكن يأتيها النيل بطين أسود فيه دسومة كثيرة ، وكل سنة يأتيها طين جديد ، ولهذا تزرع جميع أراضيها ولا يبرّاح شيء منها كما يُفعل في العراق .

وعقد الفصل الثاني من هذه المقالة للنباتات ، ووصفها وصفًا دقيقًا ، ووصف عالم فيلسوف ، وهو يستله بالحديث عن البامية ، فيقول : « من ذلك البامية ، وهي ثمر بقدر إبهام اليد . . . شديد الخضرة ، إلا أن عليه زئبراً مشوكاً ، وهذا الثمر خمس الشكل يحيط به خمسة أضلاع ، فإذا شقّ انشق عن خمسة أبيات بينها حواجز ، وفي تلك الأبيات حبّ مصطفىّ مستدير أبيض ، أصغر من اللوبيا ، هشّ ، يضرب إلى الحلاوة ، وفيه قبض ولعابية كثيرة ، يطبخ أهل مصر به اللحم ، بأن يُقَطَّع مع قشوره قطعاً صغيراً ، ويكون طعاماً لا بأس به ، الغالب على طبعه الحرارة والرطوبة ، ولا يظهر في طبخه قبض ، بل لزوجة » .

ويمضي على هذا النحو الدقيق في وصف بقية نباتات مصر وفواكهها ، وفي الفصل الثالث يتكلم عما تختص به مصر من الحيوان مما يعيش على الأرض أو يجري في النيل أو يصاد من البحر الرومي ، يقول :

« ومن ذلك الثرسو ، وهي سلحفاة عظيمة ، وزنها نحو أربعة قناطير إلا أن جفنيها أعني عظمتي ظهرها كالترس ، له أفاريز خارجة عن جسمها نحو الشبر ، ورأيتها بالإسكندرية ، يُقَطَّع لحمها ويباع ، كلحم البقر ،

وفي لحمها ألوان مختلفة ما بين أخضر وأحمر وأصفر وأسود وغير ذلك من الألوان ، ويخرج من جوفها نحو أربعمئة بيضة ، كبيض الدجاج سواء ، إلا أنه لين القشعر . واتخذت من بيضها عجة ، فلما جمد صار ألواناً ما بين أخضر وأحمر وأصفر شبيهاً بألوان اللحم . ومن ذلك الدلینس (أم الخلول) وهو صدف مستدير إلى الطول . . . ينشق عن رطوبة مخاطية بيضاء ، ذات نكتة سوداء ، يعافها الناظر ، وفيه ملوحة عذبة ، زعموا ، ويباع بالكيل .
ويتحدث في الفصل الرابع عن آثار مصر العجيبة - حديث العالم المحقق ، وكأنه عالم عصرى من علماء الآثار ، ونحن نعرض طائفة من أقواله في هذا الفصل وصفت فيها الأهرام وأبا الهول ، يقول :

« ومن الآثار القديمة الأهرام ، وقد أكثر الناس من ذكرها ووصفها ومساحتها ، وهى كثيرة العدد جداً ، وكلها بئر الجيزة ، وعلى سمت مصر القديمة ، وتمتد فى نحو مسافة يومين ، وفى بوصير منها شىء كثير ، وبعضها كبار وبعضها صغار . . . وبعضها مدرج وأكثرها مخروط أملس . . . وأما الأهرام المتحدثة عنها المشار إليها الموصوفة بالعظم فثلاثة أهرام موضوعة على خط مستقيم بالجيزة قبالة القسوط ، وبينها مسافات يسيرة ، زواياها متقابلة نحو المشرق ، واثنان منها عظيمان جداً وفى قدر واحد ، وبهما أولع الشعراء ، وشبهوهما ينهدين ، قد نهدا فى صدر الديار المصرية ، وهما متقاربان جداً . . . وأما الثالث فينقص عنهما بنحو الربع . . . وتجده صغيراً بالقياس إلى الآخرين ، فإذا قربت منه وأفردته بالنظر هالك مرآه ، وحسّر الطرف عند تأمله . وقد سلك فى بناء الأهرام طريق عجيب من الشكل والإتقان ، ولذلك صبرت على مر الزمان ، بل على ممرها صبر الزمان ، فإنك إذا تبصرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها ، والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها ، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها لها ، والملكات الهندسية قد

أخرجتها إلى الفعل مثلاً هو غاية إمكانها ، حتى إنها تكاد تحدث عن قومها
وتُخبر بحالهم ، وتنطق عن علومهم وأذهانهم ، وترجم عن سيرهم وأخبارهم
... وإن المسّاح ذكروا أن قاعدة كل منهما أربعمئة ذراع طولاً في مثلها
عرضاً ... وأما الذى شاهدته من حالهما فإن رامياً كان معنا رعى سهماً في
قطر أحدهما وفي سمكه ، فسقط السهم دون نصف المسافة ، ونخبّرنا أن في
القرية المجاورة لهما قوماً قد اعتادوا ارتقاء الهرم بلا كلفة ، فاستدعينا رجلاً
منهم ورضخنا له بشيء ، فجعل يصعد فيها ، كما يرقى أحدنا في الدرج ،
بل أسرع ... وفي أحد هذين الهرمين مدخل ، يلجّه الناس ، يفضي بهم
إلى مسالك ضيقة وأسراب متنافذة وآبار ومهالك ... وهذا المدخل ليس هو
الباب المتخذ له في أصل البناء ، وإنما هو منقوب نقياً صودف اتفاقاً ...
وهذه الأهرام مبنية بحجارة جافية ، يكون طول الحجر منها ما بين عشرة
أذرع إلى عشرين ذراعاً ، وسمكه ما بين ذراعين إلى ثلاث ، وعرضه نحو
ذلك ، والعجب كل العجب في وضع الحجر على الحجر بهندام ، ليس في
الإمكان أصح منه ، بحيث لا تجد بينهما مدخل إبرة ولا خلل شعرة ،
وبينهما طين ، كأنه الورقة لا أدري ما صنّفه ولا ما هو . وعلى تلك الحجارة
كتابات بالقلم القديم المجهول الذى لم أجده بديار مصر من يزعم أنه سمع بمن
يعرفه . وهذه الكتابات كثيرة جداً .

وعند هذه الأهرام بأكثر من غلّوة (مقدار رعى السهم) صورة رأس
وعنق بارزة من الأرض في غاية العظم ، يسميه الناس أبا الهول ... وفي وجهه
حمرة ودهان أحمر يلمع عليه رونق الطلاوة ، وهو حسن الصورة مقبوها ،
عليه مسحة بهاء وجمال ، كأنه يضحك مبتسماً . وسألني بعض الفضلاء
ما أعجب ما رأيت ؟ فقلت تناسب وجه أبي الهول ، فإن أعضاء وجهه كالأنف
والعين والأذن متناسبة ، كما تصنع الطبيعة الصور متناسبة ... والعجب من

مصوره كيف قدر أن يحفظ نظام التناسب في الأعضاء مع عظمها ، وأنه ليس في أعمال الطبيعة ما يحاكيه وينقله .

وينتقل إلى الحديث عن عين شمس واستظهر أنها كانت بيت عبادة ! وتحدث عن صورها وتمثيلها ومسلتيها المشهورتين ، ووصف المسلة بأنها « قاعدة مربعة ، طولها عشر أذرع في مثلها عرضاً في نحوها سمكاً قد وضعت على أساس ثابت في الأرض ، ثم أقيم عليها عمود مربع مخروط ، ينيف طوله على مائة ذراع ، يتدنى من قاعدة ، لعل قطرها خمس أذرع ، وينتهى إلى نقطة ، قد ألبس رأسها بقلنسوة نحاس ، إلى ثلاث أذرع منها كالقمع » . وتحدث عن الإسكندرية وعمود السواري بها ووصفه وصفاً دقيقاً ، ثم تحدث عن منف التي كان يسكنها الفراعنة وقال فيها : « هذه المدينة مع سعتها وتقادم عهدها وتداول الملل عليها واستئصال الأمم لإياها من تعفية آثارها ومحو رسومها ونقل حجارتها وآلاتها وإفساد أبنيتها وتشويه صورها ، مضافاً إلى ما فعلته فيها أربعة آلاف سنة فصاعداً ، تجد فيها من العجائب ما يفوت فهم المتأمل ، ويُحصَرُ دون وصفه البليغ الملسن » . وأطال في وصف آثار منف ومقابر الفراعنة التي تملأ الوادي ، وعرض لتخريب المصريين لها بحثاً عن الذهب المدفون مع الموتى ، وتلوّم من يحاولون نقض هذه الآثار من ملوك الإسلام ، وقال : « ما زالت الملوك تراعى بقاء هذه الآثار ، وتمنع من العبث فيها والعيش بها وإن كانوا أعداء لأربابها ، وكانوا يفعلون ذلك لمصالح ، منها لتبقى تاريخاً يتنبه به على الأحقاب . »

وعقد الفصل الخامس من المقالة الأولى في هذا الكتاب للحديث عن غرائب الأبنية المستحدثة والسفن ووقف طويلاً عند الحمامات وأشاد بها وبأحواضها وما يتخذ فيها من مقاصير . ونخص الفصل السادس بما في مصر من غرائب الأطعمة .

أما المقالة الثانية فقد قسمها إلى ثلاث فصول ، جعل الفصل الأول منها للنيل وكيفية زيادته وعلل ذلك وقوانينه ، وأما الفصلان الثاني والثالث فجعلهما للكلام في حوادث سنتي ٥٩٧ و ٥٩٨ هـ . وكان قد تصادف وجود قحط وظهور وباء بمصر ، فأفاض في وصف ذلك وكثرة ما كان من موتى وفقير ماحق ساحق .

٥

رحلات مختلفة

وراء هذه الرحلات في الأمم والبلاد كثير من الرحلات التي دَوَّنها كبار العلماء والفلاسفة والأدباء من العرب ، وسجلوا فيها مشاهداتهم ونجبراتهم . ولعل أكبر رحلة فيلسوف عند العرب هو البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م وقد خصَّ برحلته الهند ، وهو فارسي من إقليم خوارزم ، صحب السلطان محموداً الغزنوي في فتوحاته المشهورة بالهند ، واستقر فيها أربعين عاماً يدرس ويفحص ، واستطاع أن يتعلم لغتها القديمة الستسكريتية . والبيروني من ذوى العقول المتفلسفة الكبيرة التي يفخر بها العرب ، وقد دون مشاهداته بالهند في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة : مقبولة في العقل أو مردولة » . والكتاب ليس رحلة بالمعنى الذي نعرفه في كتب الرحلات ، وإنما هي موسوعة لجغرافية الهند وتاريخها ومعارفها في العلوم وخاصة الرياضة والفلك . وهو يقف دائماً للمقارنة بين المذاهب الفلسفية اليونانية والحكمة الهندية وما يتصل بها . مذاهب التصوف عند القوم . ومن طريف ما لاحظته في هذا الصدد يتجلى للهند أمثال فلاسفة اليونان ممن هذبوا الأفكار والمعارف .

قواعد وقوانين متسقة ، ولذلك كانت كتبهم يختلط فيها الغث بالسمين والخرف بالصدق . ومعنى ذلك أنه لم يكن للهند منهج علمي ، يختص عقل مفكرها من الخرافات والأوهام .

والكتاب مليء بخرافاتهم وأساطيرهم وعباداتهم وما يؤمن به البراهمة وقديسهم ، ومن أهم ما فيه حديثه عن رسومهم في دينهم وقربانهم وحجّتهم وصدقاتهم وما يبيحونه ويحرمونه من المطاعم والمشارب ، ومن قوله في ذلك :

« الإمامة في الأصل محظورة عليهم بالإطلاق ... ولكن الناس يتقربون إلى اللحم ، وينبذون فيه وراء ظهورهم كل أمر ونهى ، فيصير ما ذكرناه مخصوصاً بالبراهمة ، لاختصاصهم بالدين ومنع الدين إياهم من اتباع الشهوات ، كالمثال فيمن هو فوق أساقفة النصارى من مطران وجاثليق وبطريرك . . . وإذا كان الأمر على هذا أبيحت الإمامة بالتخنيق وإمسالك النفس في بعض الحيوان دون بعض ، وحُرِّمت الميتة من المباحات إذا ماتت حتف أنفها . فأما المباحات فهي الضأن والماعز والظباء والأرانب والحواميس والسملك والطيور المائية والبرية منها كالعصافير والفواخت والدراريج والحمام والطواويس وما لا تعافه النفس مما لم يرد به حظر . والمنصوص على تحريمه البقر والحيل والبغال والأحرة والأبصرة والفيلة والدجاج الأهلية والغربان والبيغاء وبيض جميعها بالإطلاق ، والخنزير » .

ويتحدث عن قضائهم وعقوباتهم وكفّاراتهم وما عندهم من تأديب وتغريم ومواريتهم وحرقتهم لموتاهم وصيامهم وأعيادهم وأفراحهم وأيامهم المعظمة وأوقاتهم المسعودة والمنحوسة لاكتساب الثواب ومجامعهم وأنهارهم المقدسة وما يؤمنون به من أحكام النجوم ، وكل ما يتسميمهم في عاداتهم وطباعهم . وهو يفيض في ذلك إفاضة الفيلسوف البصير ، الذي يعرف كيف يلاحظ وينقد ، مع دقة التفكير وعمقه .

ومن زاروا مصر وتحدثوا عنها الهروي السائح المتوفى سنة ٦١١ هـ / ١٢١٤ م وهو ممن طافوا بالعالم الإسلامي وقد زار القسطنطينية وصقلية وغيرها من جزائر بحر الروم ، وعنى بتدوين تطوافه ، ولكن من جهة خاصة ، هي ما شاهده من المساجد والأبنية والعمارات والأصنام والآثار والطلسمات ، وألف في ذلك كتاباً سماه « الإشارات إلى معرفة الزيارات » .

وربما اطلع على كتاب عبد اللطيف البغدادي عن مصر فإنه تابعه في وصف آثارها ومعابدها وقبور فراعنتها وقال إنه دخل الحرم ، غير أنه يختلف عن البغدادي في أنه لم يكن عالماً ناقداً ولا فيلسوفاً بصيراً ، فلا كتابه بالأساطير والخرافات .

واشتهر الأندلسيون بكثرة ما كتبوا من رحلاتهم إلى المشرق ، وسنفرد لرحلتي ابن جبير وابن بطوطة فصلين خاصين . ووراء هاتين الرحلتين رحلات مختلفة لا يزال أكثرها مخطوطاً مثل رحلة العبدري في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) وابن رُشيد السبتي المتوفى سنة ٧١١ هـ / ١٣١٢ م والبلوي في القرن الثامن (الرابع عشر الميلادي) وقد عُنوا في رحلاتهم بأخبار الأدباء والعلماء في كل قطر شاهده . ويمكن أن ندخل في هذا الباب ما كتبه ابن خلدون باسم « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً » ومعروف أنه ولد بتونس ورحل إلى غرناطة في الأندلس ، واتصل وداخل ملوك المغرب ومصر ، وفيها ألقى عصا تسياره ، حيث ولي القضاء . وقد رافق السلطان الناصر في تصديده لتيمورلنك وجيوشه بالشام . وهو يعطينا في تعريفه بنفسه وبرحلته كثيراً من المعلومات عن عصره والبلدان التي زارها في الأندلس وعلى طوال الشاطئ الإفريقي إلى الشام ، كما يعطينا كثيراً من المعلومات السياسية والتاريخية . وما زالت كتابة الرحلات مستمرة بعد ابن خلدون ، يكتبها المغاربة والمشاركة حتى إذا وصلنا إلى العصر الحديث اتجه الرحالة إلى أوربة يصفون

مشاهداتهم فيها ، ومن أشهر ما كتب في ذلك ~~رحلة رفاعة الطهطاوى~~ إلى فرنسا وقد سماها « تخليص الإبريز في تلخيص باريز » وفيها وصف رحلته إليها مع البعث العلمى الأول من بعوث محمد على ، وكان في سنة ١٨٢٤ مصوراً ما شاهده في باريز من جوانب الحياة المادية والسياسية والثقافية تصويراً حياً يعبر عن حماسة هذا الشيخ ومبلغ ما أثرته الحضارة الفرنسية في عقليته المصرية الشرقية . والرحلة طريفة حقاً ، لأنها تصور لنا كيف كان المصريون في النصف الأول من القرن الماضى يرون الحياة الفرنسية . وكيف كانوا يتصلون بها متأثرين ، وكيف كانوا يحكمون على جوانبها المختلفة . غير أنه كتبها في عبارة مسجوعة ، وكان حريصاً به أن يخلو حذو رحلتنا القدماء ، فلا يدخل السجع في كتابه . ولا يجعله عائقاً دون تصوير ما يريد أن يصوره من حياة القوم .

ومن فصول الرحلة الممتعة فصل كتبه عن السياسة عند الفرنسيين ، لاحظ فيه أن نظم الحكم هناك تختلف عن نظائرها في مصر ، فلك فرنسا (وكانت قد عادت لما الملكية) لا يحكم كما يحكم محمد على حكماً مطلقاً ، وإنما يحكم بمقتضى دستور يحدد سلطانه ، وقد قرأ هذا الدستور ، واعتذر عن ترجمته . وكأنه كان يتمنى لو أخذ محمد على بهذا النظام الدستورى ، وترك النظام الفردى الاستبدادى الذى كان يحكم به مصر والمصريين ، والذى لم يكن يتقيد فيه بقوانين ولا ما يشبه القوانين .

والمصريين بعد رفاعة كثير من الرحلات إلى أوربة ، تارة يذهبون إلى مؤتمرات ، وتارة يذهبون لغرض التزهة ، وفي الغرضين جميعاً كانوا يكتبون ويصفون ما يشاهدونه هناك ، من مثل ما كتبه أحمد زكى (باشا) ، وللبتانونى رحلة إلى الأندلس . ويمكن أن ندخل في هذا الباب الملحق الذى أضافه محمد المويلحى إلى كتابه حديث عيسى بن هشام ، حيث وصف الغرب ومعرضاً من معارض باريس .

وبجانب ذلك توغل المصريون في جنوب السودان يريدون أن يعرفوا منابع النيل ، وكان كثير من الغربيين قد سبقوهم إلى ذلك ، فشاركوهم وأسهموا معهم في هذا الميدان . وعنى كثير من الرحالة على رأسهم البتانونى بوصف الرحلة إلى مكة المكرمة ، وكتابه « الرحلة الحجازية » ذائع مشهور ، وفيه كثير من المصوّرات ، وهو غنى بالمعلومات عن مناسك الحج . ولمحمد حسين هيكل « من وحى النبوة » وهى رحلة فى البلاد الحجازية ، كتبها بأسلوبه البليغ ، وقام أحمد حسنين برحلة فى الصحراء الغربية ، اكتشف فيها بعض واحات كانت مجهولة ، وصور رحلته فى جزعين بعنوان « فى صحراء ليبيا » واهتمّ بأرصاد فلكية مختلفة ، وعيّن مواضع جغرافية كثيرة ، وجلب معه طائفة من النماذج الجيولوجية . ومن يكثرون عن رحلاتهم فى الشرق والغرب ووصف ما يشاهدون هنا وهناك محمد ثابت . وزار أمريكا محمود تيمور ودوّّن مشاهداته فى كتابه « أبو الهول يطير » . ووراء من سميناهم كثيرون يكتبون عن الغرب والشرق والحجاز ، وإن من الصعب أن نحصيهم لكثرتهم . ونعود إلى الورا لنعرض أهم رحلتين خلفتهما عصورنا الوسطى ، وهما رحلة ابن جبير وابن بطوطة ، إذ لا تزال لهما شهرة مدوية إلى وقتنا الحاضر .

الفصل الرابع

رحلة ابن جبير

١

حياته وتطوافه في البلاد

هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جُبَيْر الكِنَانِي الأَنْدَلُسِي . أصل أسرته من بلدة شاطبة هناك ، وولد ببِلَنسِيَة سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م وعنى أبوه بتربيته ، فدرس العلوم الدينية واللغوية ، ولم يلبث أن تيقظت فيه مواهبه الأدبية ، فأخذ في قرض الشعر .

ولع اسمه ، فألحقه حاكم غرناطة أبو عثمان سعيد بن عبد المؤمن بكتّاب ديوانه ، ونحّف على نفسه ، فكان يُحضّره مجلس شرابه ، وكان ينقبض عن الشرب ، فألح عليه الحاكم أن يشرب معه ، وأقسم عليه ليشرّب سبعة ، وجاراه ، فشرب سبع كنوس . وسرّ الأمير ، وملاً له الكأس بالدنانير سبع مرات ، وصبّها في حجره ، فأصرّ في نفسه أن يكفّر عن سيئته ، وأن ينفق هذه الدنانير في الحج إلى بيت الله . ولم يلبث أن أعلن عزمه لأبي عثمان ، وأنه حلف بأيمان لا يحيص له من البرّ بها ، فأعانه على ما ابتغاه .

وفصل ابن جبير من غرناطة في ٨ من شوال سنة ٥٧٨ هـ / ٣ من فبراير سنة ١١٨٣ م ، وركب البحر في سفينة لبعض أهل جنوة قاصداً إلى الإسكندرية . ونزل بها ، وولى وجهه إلى القاهرة ومنها إلى قوص بصعيد مصر ، فعيناب حيث اجتاز البحر إلى جندّة . واتجه من فوره إلى مكة ، فأدى فريضة الحج ،

وزار المدينة ، وظل في هذه البلاد المقدسة نحو ستة أشهر ، ثم قصد إلى الكوفة ، فبغداد فالموصل ولم يمر مروراً عابراً بهذه البلاد ، بل كان يمكث بعض الوقت يدرس ويفحص . وانتقل إلى الشام ، وكان للصليبيين فيها مستعمرات كثيرة ، فجاس خلال ديارهم . وأخيراً ركب البحر من عكا عائداً إلى بلاده على مركب مسيحي ، وألت المركب بصقلية ، فنزل فيها وطاف ببلادها ، ثم رحل إلى بلاده ووصل إليها في ١٥ من المحرم سنة ٥٨١هـ / ٢٥ من أبريل سنة ١١٨٥ م .

ورحلة ابن جبير تفصّل ما شاهده في طريقه إلى حَجَّه وعودته منه ، وهي مكتوبة بشكل مذكرات يومية ، فح كل مشهد وكل بلدة التاريخُ باليوم والشهر . ويظهر أنه كتبها في أوراق منفصلة ، ولم يجمعها بنفسه بل جمعها بعض تلاميذه ونشرها بعد وفاته باسم « تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار » ومع ذلك فإن من نشرها في العصر الحديث من المستشرقين والعرب آثروا أن يطلقوا عليها اسم « رحلة ابن جبير » .

ورحل ابن جبير إلى المشرق بعد هذه الرحلة مرتين ، فإنه سمع بفتح صلاح الدين لبيت المقدس واستيلائه عليه من أيدي الصليبيين ، فحدثته نفسه أن يزور هذه الأماكن وعلم الإسلام والعرب يرفرف عليها ، ولم يلبث أن رحل رحلته الثانية في سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م وعاد إلى بلاده في سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م . وماتت زوجته فحزن عليها حزناً شديداً ، وقد نخصها بديوان من شعره ، ولم يجد عزاء عنها إلا أن يحج إلى بيت الله ، فرحل رحلته الثالثة في سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م وأقام بمكة مدة ، ثم تحول عنها إلى الإسكندرية ، وأقام بها يحدّث ويؤخّذ عنه إلى أن لبّى نداء ربه . ويغلب أن يكون مسجد سيدي جابر بها مسجده ، وأن يكون العامة حرقوا اسمه مع الزمن . والرحلة مكتوبة بلغة سهلة بسيطة ملائمة تماماً لموضوعها ، وطريقته في السرد

محبة إلى النفس ، وهو يصف ما يشاهده وصفاً دقيقاً ، وقد عني بالحديث عن المساجد في كل بلدة ألم بها ، وترك نفسه على سجيته فلم يتكلف في عبارة ولا في فكرة ، وأدى ما داخله من عواطف وأحاسيس إزاء بعض الحوادث والمواقف أداء صادقاً صريحاً .

٢

في الديار المصرية

يركب ابن جبير البحر بإحدى سفن جنوة وينزل في الإسكندرية ، فيلقى موظفو الميناء السفينة بتفتيش دقيق ، ويأخذون من راكبيها بغض الضرائب ، ولا ينزلونهم منها إلا بعد تحرّ وثيق . وشكا ابن جبير من ذلك مر الشكوى ، وغاب عنه أن مصر حينئذ كانت تحارب الصليبيين وأنه كان يركب سفينة أوربية من جنوة ، هي موضع شك واتهام .

ولما استوثق الموظفون منه ومن صحبه الأندلسيين تركوهم وشأنهم ، فجاس خلال الإسكندرية وأعجب بمبانيها ومنازلها ومدارسها وما رُتّب فيها للطلبة والمدرسين من مرافق ومنافع ، وما يجري على غُرَباء المغاربة من خُبْر يومى معلوم ، وما يسود ذلك من أمن ورفاهية في المعيشة ، ولندعه يصف لنا ذلك بقلمه ، معدداً محاسن البلد وأخباره وآثاره ، يقول :

« أولُ ذلك حسنُ وضع البلد واتساع مبانيه ، حتى إنا ما شاهدنا بلداً أوسع مسالك منه ، ولا أعلى مبنى ، ولا أعتق ولا أحفل منه ، وأسواقه في نهاية من الاحتفال أيضاً . . . ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذي قد وضعه الله عز وجل على يدي من نُحَرَّ لذلك آية للمتوسمين ، وهداية

للمسافرين ، لولاه ما اهتمدوا في البحر إلى بر الإسكندرية . يظهر على أزيد من سبعين ميلا ، ومبناه في غاية العتاقة والوثاقة طولا وعرضاً ، يزاحم الجو سما وارتفاعاً ، يقصر عنه الوصف ، وينحسر دونه الطرف ، الخبر عنه يضيق ، والمشاهدة له تتسع . ذَرَعْنَا أحد جوانبه الأربعة ، فألقينا فيه نيفاً وخمسين باعاً » . ويذكر أن طوله أزيد من مائة وخمسين قامة . « وأما داخله فرأى هائل اتساع معارج ومداخل ، وكثرة مساكن ، حتى إن المتصرف فيها والوالج في مسالكها ربما ضل ، وبالجملة لا يحصلها القول . . . وفي أعلاه مسجد موصوف بالبركة ، يتبرك الناس بالصلاة فيه ، طلعنا إليه يوم الخميس الخامس لمدى الحجة المؤرخ ، وصلينا في المسجد المبارك المذكور ، وشاهدنا من شأن مبناه عجباً لا يستوفيه وصف واصف . ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه (كان حينئذ صلاح الدين الأيوبي) المدارس والمحارس (بيوت الطلاب والزهاد) الموضوعة فيه لأهل الطب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوى إليه ، ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه ، وإجراءً (راتباً) يقوم به في جميع أحواله . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطائرين ، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصّب لهم مارستانا (مستشفى) لعلاج من مريض منهم ، ووكل لهم أطباء يتفقّدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرؤنهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء . . . ومن أشرف هذه المقاصد أيضاً أن السلطان عيّن لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان في كل يوم بالغاً ما بلغوا ، ونصّب لتفريق ذلك كل يوم إنساناً أميناً من قبله ، وقد ينتهى في اليوم إلى ألفي خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة . . . وأما أهل بلده ففي نهايه من الترفيه واتساع الأحوال . . . ومن الغريب أيضاً في أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار في جميع أحوالهم .

وهو أكثر بلاد الله مساجد . . . والمكثّر ينتهى فى تقديرها إلى اثنى عشر ألف مسجد ، ومنهم من يقول ثمانية آلاف ، ومنهم من يقول غير ذلك ، وبالجملة هى كثيرة جداً تكون منها الأربعة والخمسة فى موضع . . . وكلها بأئمة مرتّبين من قبل السلطان ، فمنهم من له خمسة دنانير مصرية فى الشهر ، ومنهم من له فوق ذلك ، ومنهم من له دونه ، وهذه منقبة من مناقب السلطان . »

ويأخذ ابن جبير طريقه إلى القاهرة ومصر (الفسطاط) فى الدلتا ، ويصف المدن المختلفة التى مرّ بها ، ثم ينزل فى الفسطاط والقاهرة ، ويذهل أمام آثارها العجيبة ، ويتحدث عن مشهد الحسين ، ويفيض فى الحديث عن المشاهد الأخرى ، ويصف القلعة والمارستان والأهرام وأبناى الهول والحيزة وجزيرة الروضة القائمة بينها وبين الفسطاط . ونكتفى هنا بما يقوله عن مشهد الحسين ثم عن المارستان ، وهو يصفهما على هذا النحو :

« أول ما نبدأ بذكره . . . المشهد العظيم الشأن الذى بمدينة القاهرة ، حيث رأس الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، وهو فى تابوت فضة مدفون تحت الأرض ، قد بنى عليه بنيان حَقِيل ، يقصر الوصف عنه ، ولا يحيط الإدراك به ، مجلّل بأنواع الديباج ، محفوف بأمثال العمد الكبار شمعاً أبيض ، ومنه ما هو دون ذلك . قد وضع أكثرها فى أُنُتُوار (آنية) فضة خالصة . ومنها مذهبة . وعلقت عليه قناديل فضة ، وحُفّ أعلاه كله بأمثال التفافيح (الكرات) ذهباً ، فى مصنع (بناء) شبيه الروضة ، يُقَسِّدُ الأبصار حسناً وجمالاً ، فيه من أنواع الرخام المَجَزَّع ، الغريب الصنعة البديع الترصيع ، ما لا يتخيله المتخيلون ، ولا يلحق أدنى وصفه الواصفون . والمدخل إلى هذه الروضة على مسجد ، على مثالها فى التأنق والغرابة . حيطانها كلها رخام على الصفة المذكورة . وعلى يمين الروضة المذكورة وشمالها بيتان من كليهما المدخل إليها ، وهما أيضاً

على تلك الصفة بعينها . والأستارُ البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع .
ومن أعجب ما شاهدناه في دخولنا إلى هذا المسجد المبارك حجرٌ موضوع
في الجدار الذي يستقبله الداخل ، شديد السواد والبصيص (البريق) يصف
الأشخاص كأنه المرأة الهندية الخديثة الصقْل . وشاهدنا من استلام الناس
للقبر المبارك وإحداقهم به وانكبابهم عليه وتمسُّحهم بالكسوة التي عليه ،
وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين متوسلين إلى الله سبحانه وتعالى ببركة
التربة المقدسة ، ومتضرعين ، ما يذيب الأكباد ، ويصدع الجُماد . . .
وما شاهدناه أيضاً من مفاخر السلطان (صلاح الدين) المارستان (المستشفى)
الذي بمدينة القاهرة ، وهو قصر من القصور الرائعة حسناً واتساعاً ، أبرزه
لهذه الفضيلة أجراً واحتساباً (طلباً للثواب من الله) . وعيَّن قسيساً من أهل المعرفة
وضع لديه خزائن العقاقير ، ويمكنه من استعمال الأشرطة وإقامتها على اختلاف
أنواعها . ووُضعت في مقاصير (غرف) ذلك القصر أسيرة يتخذها المرضى
مضاجع كاملة الكُسي . وبين يدي ذلك القسيس خدمة يتكلفون بتفقد أحوال
المرضى بكثرة وعشيرة . . . ويلبّاء هذا الموضع مقتطع للنساء المرضى ، ولهنّ
أيضاً من يكفلهن . ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء ،
فيه مقاصير عليها شبابيك من الحديد ، اتخذت محابس للمجانين ، ولهم أيضاً
من يتفقد في كل يوم أحوالهم ، ويقابلها بما يصلح لها . وبمصر (القسطنطينية)
مارستان آخر على مثل ذلك الرّسم بعينه . »

وهو يُكثّر من مدح صلاح الدين ورعايته لشئون المصريين وما ينزل بقُطره
من المغاربة إذ يُجرى عليهم الأرزاق ويخصهم بعطفه وحنانه ، وقد نوه باهتمامه
بالمدارس وما بها من ضروب التعليم وعنايته بتحفيظ القرآن الكريم ، وأشاد
بمحوه للضريبة التي كانت تؤخذ في القاهرة من حُجّاج المغرب وسجّوها أيضاً
من بلاد الحجاز بفضل ما أفاء على هذا القطر من ماله فعوضَ الحاكمين

هناك أجل عوض بما أدّى إليهم .

ويبرح القاهرة في شهر المحرم من سنة تسع وسبعين ميمماً وجهه نحو قوص ، ويصف كل ما بطريقه من مدن وآثار وقبور للفراعنة وغيرهم ، ويقف دائماً عند المساجد والأسواق والهياكل العتيقة وما عليها من تصاوير الفراعنة ونقوشهم ، وما يزال في طريقه ووصفه حتى يصل إلى قوص فيقول : « ثم كان الوصول إلى قوص يوم الخميس الرابع والعشرين لحرم المؤرخ ، وهو التاسع عشر من مايو ، فكان مقامنا في النيل ثمانية عشر يوماً ، ودخلنا قوص في التاسع عشر ، وهذه المدينة حفيلة الأسواق ، متسعة المرافق ، كثيرة الخلق ، لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين ، وتجار أرض الحبشة ، لأنها مخضر الجميع ومحطّ الرحال ومجمع الرفاق وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندرانيين ومن يتصل بهم . ومنها يفوزون (يخترقون المفازة) بصحراء عيذاب ، وإليها انقلاهم في صدورهم من الحج ، وكان نزولنا فيها بفندق ينسب لابن العجمي بالمنية ، وهي ربض كبير خارج المدينة » .

ويجتاز الصحراء الشرقية من قوص إلى عيذاب على البحر الأحمر واصفاً مراحله فيها ومببته بها ، وكثرة القوافل الواردة والصادرة من عيذاب تحمل توابل الهند وخاصة أحمال الفلفل والقرفة ، موزعاً ما يشاهده على الأيام والليالي حتى يصل إلى عيذاب ، فيقول فيها :

« هي مدينة على ساحل بحر جُدَّة (البحر الأحمر) غير مسورة ، أكثر بيوتها الأنحصاص (بيوت من طين) وهي من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها ، زائداً إلى مراكب الحجاج . . . وهي في صحراء لا نبات فيها ، ولا يؤكل فيها شيء إلا مجلوب ، لكن أهلها بسبب الحجاج تحت مرفق كبير . . . فيجتمع لهم من ذلك مال كثير في

حملتهم إلى جلدة وردتهم وقت انقضاءهم من أداء الفريضة . . . وفي بحر عيذاب مغاص " على اللؤلؤ في جزائر على مقربة منها . . . ويستخرج منه جوهر نفيس له قيمة سنية ، يذهب الغائصون عليه إلى تلك الجزائر في الزواريق ، ويقيمون فيها الأيام ، فيعودون بما قسم الله لكل واحد منهم بحسب حفظه من الرزق . والمغاص فيها قريب القعر ليس ببعيد ، ويستخرجونه في أصداف لها أرواح ، كأنها نوع من الحيتان ، أشبه شيء بالسلحفاة ، فإذا شقت ظهرت الشفتان من داخلها كأنها محارتا فضة ، ثم يشقون عليها ، فيجدون فيها الحبة من الجوهر قد غطى عليها لحم الصدف .

٣

في الأراضي المقدسة

ويركب البحر إلى جُدَّة ، ويشكو من سوء معاملة العرب للحجاج ومما يأخذون منهم من مكوس ، ويشيد بصلاح الدين لتعهده لأمير مكة أن يدفع له سنوياً ما يعوضه عن مكوس الحجاج ، وكان يرسل إليه ألفي دينار وألفي أردب من القمح ، ومع ذلك لا يزال هذا الأمير ورعيته يظلمون الحجاج ويرهقونهم من أمرهم عسراً . ويتحول إلى مكة واصفاً الطريق إليها من جُدَّة . ودخلها في اليوم الثالث من شهر ربيع الآخر ، وهو الرابع من شهر أغسطس كما يقول ، مع طلوع الصباح ، والأصوات تصلك الآذان بالتلبية في كل مكان ، والألسنة تضحج بالدعاء ، وتبتهل إلى الله بالثناء . ويصف مناسك الحج وصفاً طويلاً ، كما يصف المسجد الحرام وصفاً مسهباً ، وما يقول فيه : « البيت المكرم له أربعة أركان ، وهو قريب من التربع . . . وارتفاعه

في الهواء من الصَّفْح (الجانب) الذي يقابل باب الصَّفَا وهو من الحجر الأسود إلى الركن اليماني تسع وعشرون ذراعاً ، وسائر الجوانب ثمان وعشرون . . . وأول أركانه الذي فيه الحجر الأسود ، ومنه ابتداء الطواف . . . وأول ما نلقى بعده الركن العراقي ، وهو ناظر إلى جهة الشمال ، ثم الركن الشامي ، وهو ناظر إلى جهة الغرب ، ثم الركن اليماني ، وهو ناظر إلى جهة الجنوب ثم نعود إلى الركن الأسود ، وهو ناظر إلى جهة الشرق . وعند ذلك نسم شوطاً واحداً . وياب البيت الكريم في الصَّفْح الذي بين الركن العراقي وركن الحجر الأسود . . . والباب الكريم مرتفع عن الأرض بأحد عشر شبراً ونصف ، وهو من فضة منبهة ، بديع الصنعة ، واثق الصفة ، يستوقف الأبصار حسناً وخشوعاً ، للمهابة التي كساها الله بيته . . . وعصاداته كذلك ، والعتبة العليا كذلك أيضاً ، وعلى رأسها لوح ذهب خالص إبريز ، وسعته مقدار شبرين ، والباب نقارنا فضة كبيرتان يتعلق عليهما قفل الباب ، وهو ناظر إلى الشرق ، وسعته ثمانية أشبار ، وطوله ثلاثة عشر شبراً . . . ودخل البيت الكريم مفروش بالرخام المجزّع ، وحيطانه رخام كلها مجزّع . قد قام على ثلاثة أعمدة من الساج (شجر) مفردة الطول ، بين كل عمود وعمود أربع خُطَطاً ، وهي على طول البيت متوسطة فيه . . . ودائر البيت كله من نصفه الأعلى مطلى بالفضة المذهبة المستحسنة ، يخيل للناظر إليها أنها صفيحة ذهب لغلظها ، وهي تحف بالجوانب الأربعة ، وتمسك مقدار نصف الخدار الأعلى . وسقف البيت مجلل بكساء من الحرير الملون . وظاهر الكعبة كلها من الجوانب الأربعة مكسوً بستور الحرير الأخضر ، وسداها تقطن ، وفي أعلاها رسم بالحرير الأحمر ، فيه مكتوب : (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة) الآية ، واسم الإمام الناصر لدين الله (الخليفة العباسي) . وسعته قدر ثلاث أذرع يطيف بها كلها . قد شكّل في هذه الستور من الصنعة الغريبة التي تبصرها

أشكالٌ محاريب، واثقة ورسوم مقروعة . . . وعدد الستور من الجوانب الأربعة أربعة وثلاثون ستراً . . . وله خمسة مضارئ (مناوور) وعليها زجاج عراقى بديع النقش أحدها فى وسط السقف ، ومع كل ركن مضواً . . . وبين الأعمدة أكواس من الفضة ، عليها ثلاث عشرة ، وإحداها من ذهب . وأول ما يلتقى الداخل من اليايب عن يساره الركن الذى خارجه الحجر الأسود ، وفيه صندوقان فيهما مصباحان ، وقد هلاهما فى الركن بويان (مصغراً بابين) من فضة ، كأنهما طاقان ملصقان بزاوية الركن ، وبينهما وبين الأرض أزيد من قامة . . . وفى الركن العراقى باب يسمى باب الرحمة ، يُصعد منه إلى سطح البيت المكرم ، وقد قام له قَبْو ، فهو متصل بأعلى سطح البيت ، داخله الأدراج ، وفى أوله البيت الختوى على المقام الكريم ، . . . هو مقام إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه ، وهو حجر مغشى بالفضة ، وارتفاعه مقدار ثلاثة أشبار ، وسعته مقدار شبرين ، وأعلاه أوسع من أسفله . . . وسائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض ، وطواف النساء فى آخر الحجارة المفروشة . . . ودخل الحجر (ما حواه الحطيم المدار بالكعبة من جهة الشمال) بلاط واسع ينعطف عليه الحجر كأنه ثلثا دائرة ، وهو مفروش بالرخام المجزّع المقطع فى دَوْر الكف إلى دور الدينار ، إلى ما فوق ذلك ، ثم ألصق بانتظام بديع وتأنيف معجز الصنعة ، غريب الإتقان رائق الترصيع والتجزيع ، رائع التركيب والوصف ، يبصر الناظر فيه من التعاريج والتقاطيع والحواطم والأشكال الشطرنجية وسواها على اختلاف أنواعها وصفاتها ما يقسّد بصره حسناً ، فكأنه يحيله فى أزهار مفروشة مختلفات الألوان ، إلى محاريب قد انعطف عليها الرخام انعطاف القسي ، ودخلها هذه الأشكال الموصوفة والصنائع المذكورة . وإليزاتها رخامتان متصلتان بجدار الحجر ، أحدث الصانع فيها من التوريق الرقيق والتشجير ما لا يحدّثه صنّع اليدين فى الكاغد (الورق)

قطعاً بالجلمين (المقصص) فرآهما عجيب . . . وقبة بئر زمزم تقابل الركن ،
ومنها إليه أربع وعشرون خطوة ، وداخلها مفروش بالرخام الأبيض الناصع
البياض ، وتنور البئر المباركة في وسطها ، وعمقها إحدى عشرة قامة حسبها
ذرعناه ، وعمق الماء سبع قامات على ما يذكر . . . والحجر الأسود المبارك
ملصق في الركن الناظر إلى جهة المشرق . . . وسعته ثلاثا شبر ، وطوله شبر
وعُتْد ، وفيه أربع قطع ملصقة . . . والمسجد الحرام يطيف به ثلاث بلاطات
على ثلاث سوارٍ من الرخام منتظمة كأنها بلاط واحد ، ذرْعها في الطول
أربعمئة ذراع وفي العرض ثلاثمئة ذراع . . . وعدد سواريه الرخامية التي
عددتها بنفسى أربعمئة وإحدى وسبعون سارية . . . والحرم محدد بحلقات
المدرسين وأهل العلم . »

ويستمر ابن جبير في وصف المسجد ، ويعرض علينا وصفاً دقيقاً للكعبة
وكسوتها ولكل ما بداخل المسجد من أجزاء ، ويطيل في وصف فتحه للناس
والرسوم المتخذة لذلك ، كما يطيل في وصف المنبر وهيئة خطيبه وما يقول في
خطبة الجمعة من أدعية ، ولا يكاد يترك شيئاً في المسجد ولا في ظاهره ووسطحه
إلا ويصفه وصفاً دقيقاً ثم يصف مكة وآثارها وجبالها ومشاهدها وأبوابها ومطاعمها
وحماماتها واحتفال الناس فيها بليلة نصف شعبان ورمضان ويوم العيد ،
ويفيض في وصف مناسك الحج ومشاعره ووصف المشاهد التي لا تفوته
صغيرة ولا كبيرة ، وهو يقسم ذلك على الأيام والساعات ، إذ يكتب دائماً
ما يكتب في صورة يوميات . وما يزال بمكة حتى اليوم العشرين من ذي الحجة ،
فيعزم على زيارة المدينة وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويصل إليها في
اليوم الثالث من المحرم ، ويستهل حديثه عنها بوصفه لمسجد الرسول ، ومما
قال فيه :

« المسجد المبارك مستطيل ، وتحفّه من جهاته الأربع بلاطات مستديرة به ،

ووسطه كله صحن مفروش بالرمل والحصى ، والجهة القبالية منه لها خمسة بلاطات مستطيلة من غرب إلى شرق ، والجهة الجوفية لها أيضاً خمسة بلاطات على الصفة المذكورة ، والجهة الشرقية لها ثلاثة بلاطات ، والجهة الغربية لها أربعة بلاطات . والروضة المقدسة (قبر الرسول وصاحبيه أبي بكر وعمر) مع آخر الجهة القبالية مما يلي الشرق . . . وشكلها شكل عجيب ، لا يكاد يتأتى تصويره ولا تمثيله . . . وجميع سعة الروضة المكربة من جميع جهاتها مئتا شبر واثنان وسبعون شبراً ، وهي مؤزرة بالرخام البديع النحت ، الرائع النعت ، وينتهى الإزار منها إلى نحو الثلث أو أقل يسيراً ، وعليه من الجدار المكرم ثلث آخر قد علاه تضييخ المسك والطيب . . . والذي يعلوه من الجدار شبابيك عود ، متصلة بالسماك الأعلى ، لأن أعلى الروضة المباركة متصل بسمك المسجد . وإلى حيز إزار الرخام تنتهى الأستار ، وهي لازوردية اللون . . . وفي الصفحة القبالية أمام وجه النبي صلى الله عليه وسلم مسبار فضة ، هو أمام الوجه الكريم ، فيقف الناس أمامه للسلام ، وإلى قدميه صلى الله عليه وسلم رأس أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، ورأس عمر الفاروق مما يلي كتفى أبي بكر الصديق رضى الله عنهما ، فيقف المسلم مستدبر القبلة ومستقبل الوجه الكريم ، فيسلم ، ثم ينصرف يمينا إلى وجه أبي بكر ، ثم إلى وجه عمر . وأمام هذه الصفحة المكربة نحو العشرين قنديلا معلقة من الفضة ، وفيها اثنان من ذهب . وعن يمين الروضة المكربة المنبر الكريم ، ومنه إليها اثنان وأربعون خطوة ، وهو مرختم كله وارتفاعه نحو القامة أو أزيد ، وسعته خمسة أشبار ، وطوله خمس خطوات ، وأدراجة ثمانية ، وله باب على هيئة الشباك مقفل ، يفتح يوم الجمعة ، وطوله أربعة أشبار ونصف ، والمنبر مغشى بعود الآبنوس ، ومقعد الرسول صلى الله عليه وسلم من أعلاه ظاهر ، قد طُبّق عليه بلوح من الآبنوس غير متصل به ، يصونه من القعود عليه ،

فيلدخل الناس أيديهم إليه ويتمسحون به تبركاً يلتمس ذلك المتعبد الكريم . . . وطول المسجد الكريم مئة خطوة وست وتسعون ، وسعته مائة وست وعشرون خطوة ، وعدد سواريه مئتان وتسعون . . . والبلاط المتصل بالقبلة تحف به مقصورة تكتنفه طولاً من غرب إلى شرق ، والمحراب فيها . وبينها وبين الروضة الكبيرة والقبر المقدس محمل كبير مدهون ، عليه مصحف كبير في غشاء ، مقفل عليه ، هو أحد المصاحف الأربعة التي وجّه بها عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى البلاد . وبإزاء المقصورة إلى جهة الشرق خزانتان كبيرتان محتويتان على كتب ومصاحف موقوفة على المسجد المبارك . . . ويليهما في البلاط الثانى الجهة الشرق أيضاً دفة مطبقة على وجه الأرض مقفلة ، هى على سرداب يُهَبَّطُ إليه على أدراج تحت الأرض ، يفضى إلى خارج المسجد ، إلى دار أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وهو كان طريق عائشة إليها . وبإزائها دار عمر بن الخطاب ودار ابنه عبد الله رضى الله عنهما . . . وأمام الروضة المقدسة صندوق كبير هو للشمع والأتوار التي توقد أمام الروضة كل ليلة . وفي الجهة الشرقية بيت مصنوع من عود ، هو موضع مبيت بعض السدنة الحارسين للمسجد المبارك . والمؤذن الراتب في المسجد أحد أولاد بلال رضى الله عنه . وفي جهة جوف الصحن قبة كبيرة محدثة جديدة ، تعرف بقبة الزيت ، هى مخزن لجميع آلات المسجد المبارك وما يحتاج إليه فيه . . . ونصف جدار القبلة الأسفل رخام . . . مختلف الصنعة واللون ، مجزّع أبدع تجزيع ، والنصف الأعلى من الجدار مزين كله بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء ، قد أنتج الصانع فيه نتائج من الصنعة غريبة . تضمنت تصاوير أشجار مختلفات الصفات ، ماثلة الأغصان يثمرها ، والمسجد كله على تلك الصفة ، لكن الصنعة في جدار القبلة أحفل . . . وللمسجد المبارك تسعة عشر باباً ، لم يبق منها مفتوحاً سوى أربعة في الغرب ، منها اثنان يعرف واحد بباب الرحمة والثاني بباب الحشية ،

وفي الشرق اثنان ، يعرف واحد بباب جبريل عليه السلام والثاني بباب الرجاء .
ويقابل باب جبريل دار عثمان رضى الله عنه . . . وأمام الروضة المكرمة
شباك حديد مفتوح إليها ، تنسم منه روحاً وريحاناً . . . »
ويصف لنا ابن جبير مشاهد المدينة ، كما يصف مجلس وعظ بالمسجد
النبوي ، وسرعان ما يترك يثرب في اليوم الثامن من شهر المحرم ميمماً شطر
العراق .

٤

في العراق والشام

ويرسم لنا ابن جبير الطريق إلى الكوفة بمنازله ومناخله رسماً بارعاً ، ثم
يأخذ في رسم المدن العراقية يادئاً بالكوفة وما يزال في رسومه وحديثه عن البلاد
التي يهبط بها حتى يصل إلى بغداد في الثالث من صفر سنة ثمانين . وأفرد
لهذه المدينة فصلاً طويلاً ، ومما جاء فيه :

« هذه المدينة العتيقة ، وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية ومثابة الدعوة
الإمامية القرشية الهاشمية ، قد ذهب أكثر رسمها ، ولم يبق منها إلا شهرير
اسمها ، وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها ، والتفات
أعين النوائب إليها ، كالطلل الدارس ، والأثر الطامس ، أو تمثال الخيال
الشاحص ، فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعى من المستوفز (المتعجل)
العقلة (الوقوف) والنظر ، إلا دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها ممثلاً كالمرآة
المجلوة بين صفحتين أو العقد المنتظم بين لبستين . »

وتحامل على أهل بغداد تحاملاً شديداً فقال فيهم : « لا تكاد تلتقي منهم إلا من

يتصنع بالتواضع رياء ، ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء ، يزددون الغرباء ، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء ، ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنبياء . قد تصور كل منهم في معتقده وتحكده أن الوجود كله يصغر بالإضافة لبلده ، فهم لا يستكرمون في معمر البسيط مثوى غير مثواهم ، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلاداً أو عباداً سواهم . . . يتبايعون بينهم بالذهب قرضاً ، وما منهم من يحسن لله فرضاً ، فلا نفقة فيها إلا من دينار تقرضه ، وعلى يدي نحسر للميزان تعرضه ... والغريب فيهم معدوم الإرفاق ، متضاعف الإنفاق ، لا يجد من أهلها من يهش إليه هشاشة انتفاع واسترقاق . »

وهذا عنف في الدم ، وهو ذم يعود — في أغلب الظن — إلى أسباب شخصية ، وينبغي للمؤرخ أن يتخلى عن هواه حين يحكم على قوم من الأقوام . ولم نورد كلام ابن جبير على وجهه ، ففي هذا ما يغني عن جميعه ، ومع ذلك فهو يستثنى بعد كل هذا الدم واللوم ، فيقول :

« أستغفر الله إلا فقهاءهم المحدثين ووعاظهم المذكرين ، لا جرم أن لهم في طريقة الوعظ والتذكير ، ومداومة التنبيه والتبصير ، والمثابرة على الإنذار المخوف والتحذير ، مقامات (مجالس) تستنزل لهم من رحمة الله تعالى ما يحبط كثيراً من أوزارهم ، ويسحب ذيل العفو على سوء آثارهم ، ويمنع القارعة (النكبة) الصماء أن تحلّ بديارهم ، لكنهم معهم يضربون في حديد بارد ، ويرومون تفجير الجلامد . »

ويصف مجالس مختلفة لعالم كبير من علماء بغداد هو رضى الدين القزويني رئيس الشافعية وفقه المدرسة النظامية ، ويقول في مجلس من مجالسه : « كان مجلسه مجلس علم ووعظ ، وقوراً هيناً ليناً ، ظهرت فيه البركة

والسكينة ، ولم تقصر عن إرسال عبرتها فيه النفس المستكينة ، ولا سيما آخر مجلسه فإنه سرّتْ حُمَيًّا وعظه إلى النفوس حتى أطاوتها خشوعاً ، وفجرتها دموعاً ، وبادر التائبون إليه سقوطاً على يده ووقوعاً ، فكم ناصية جزّ ، وكم مفصل من مفصل التائبين طَبَّقَ بالموعظة وحرّز . وبمثل مقام هذا الشيخ المبارك ترخّمُ العصاة ، وتتغمّد الجناة ، وتستلذّام العصمة والنجاة . »

واستمع أيضاً إلى ابن الجوزي إمام عصره في الحديث والوعظ ، وراعه بيانه وما يلقي في الأسماع من درر لفظه الآخذة بمجامع القلوب ، وفي وصف خطبة له يقول :

« أتى فيها برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر ، طارت لها القلوب اشتياقاً ، وذابت بها الأنفس احتراقاً ، إلى أن علا الضجيج ، وتردد بشهقاته النشيج ، وأعلن التائبون بالصياح ، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح . فشاهدنا هولاً يملأ النفوس إنابةً وندامةً ، ويذكّرنا هول يوم القيامة ، فلو لم نركب ثَبَجَ البحر ، ونعتسف مفازات القفر ، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الراجعة ، والوجهة المفلحة الناجحة . »

ويقول إن مجلس ابن الجوزي كان يبتدئ بقراءة القرآن ، وكان ينشد فيه الأشعار التي تشعل القلوب وجداً ، والانتفال قد أثر فيه ، ويكاد يمنع خروج الكلام من فيه . ويعود بنا إلى وصف بغداد ومبانيها ومحالّها وأسواقها ، ثم يغادرها إلى الموصل في الخامس عشر من صفر ، ويصف لنا بلدان الموصل بلدة بلدة ، ثم يتحول إلى الشام وينزل حَتَّاب ، وقد أعجب بمبانيها وحصونها ، ومن قوله فيها :

« بلدة قدرها خطير ، وذكرها في كل زمان يطير . . . لها قلعة شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، معدومة الشبه والنظير في القلاع ، تنزهت حصانة أن ترام أو تستطاع ، قاعدة كبيرة ، ومائدة من الأرض مستديرة ، منحوتة

الأرجاء ، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء . . . ومن كمال خلالتها المشترطة في حصانة القلاع أن الماء بها نابع ، وقد صنّع عليه جبان ، فهما ينبعان ماء فلا تخاف الظمأ أبدا الدهر ، والطعام يصير فيها الدهر كله ، وليس في شروط الحصانة أهم ولا آكد من هاتين الخلتين . ويطيف بهذين الجبين المذكورين سوران حصينان . . . ويعترض دونهما خندق . . . وسورها الأعلى كله أبراج منتظمة ، فيها العلى (الغرف العليا) المنيفة ، والقصاب (الدور) المشرفة . . . وأما البلد فوضعه ضخم جدا حفيل التركيب بديع الحسن ، واسع الأسواق كبيرها ، متصلة الانتظام مستطيلة . تخرج من سمات صنعة إلى سمات صنعة أخرى ، إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية . وكلها مسقف بالخشب ، وسكانها في ظلال وارقة ، وكل سوق منها تقيّد الأبصار حسناً ، وتستوقف المستوفز تعجباً . وأما قيساً ريتها فحديقة بستان نظافة وجمالاً ، مطيفة بالجامع المكرّم . . . وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها ، قد أطاف بصحنه الواسع بلاط متسع ، مفتّح كله أبواباً مغربة الحسن إلى الصحن ، عددها ينيف على الخمسين باباً ، فيستوقف الأبصار حسن منظرها ، وفي صحنه بئران معينان . . . ويتصل به من الجانب الغربي مدرسة للمحتفية تناسب الجامع حسناً وإتقان صنعة ، فهما في الحسن روضة تتجاوز أخرى . . . ومن أظرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبليّ مفتّح كله بيوتاً وغرفاً . . . وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنباً . . . وللبلدة سوى هذه المدارس نحو أربع مدارس أو خمس ، ولها مارستان . »

ويترك حلب إلى حماة وحمص ، ويصل إلى دمشق في يوم الخميس الرابع والعشرين من ربيع الأول ويستهل حديثه عنها بهذا المديح الرائع :

« جنة المشرق ، ومطلع حسنه الموقّع المشرق ، وهى خاتمة بلاد الإسلام التى استقرأناها ، وعروس المدن التى اجتليناها ، قد تحلت بأزاهير الرياحين ،

وتجلت في حلل سندسية من البساتين ، وحللت من موضوع الحسن بالمكان
المكين ، وتزينت في منصتها أجل تزيين .. ظلٌ ظليل ، وماء سلسيل ،
تنساب مذابه انسياب الأراقم (الحيات) بكل سيل ، ورياض يحيي القوس
نسيمها العليل ، تتبرج لناظريها بمجتل صقيل ، وتتاديهن : هلموا إلى معرس
للحسن ومقيل ، وقد سثمت أرضها كثرة الماء ، حتى اشتاقت إلى الظماء ،
فتكاد تناديك بها الصم الصلاب : اركض برحلك ، هذا مَعْتَسِك يارد وشراب .
قد أحدثت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر ، واكتنفها اكتناف الكامة
للزهر ، وامتدت بشرقها غوطتها الخضراء امتداد البصر ، فكل موضع لحظته
بجهاتها الأربع نضرته البانعة قيّد النظر ، والله صدقُ القائلين عنها : إن كانت
الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها ، وإن كانت في السماء فهي بحيث تُساعدها
(تقابلها) وتحاذيها .

و يأخذ في وصف جامعها العجيب ، ويتحدث عن أبوابه وحيطانه وما
عليها من نقوش وتصاوير ، كما يتحدث عن مقاصيره وعمده وقبابه ومحاريبه وشمسياته
وما به من بديع البناء وغرائب الحلى . ثم يتحدث عن مشاهد دمشق وأبوابها
وأسواقها ومدارسها ومارستانها مشيداً بكل ذلك كما يشيد بما فيها من رُبُطٍ
ونخائق للمتصوفة ، وفي هذه الخواثق يقول :

« هي قصور مزخرفة بطُرد في جميعها الماء على أحسن منظر يُبصّرُ ،
وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا
وفضلها ، وفرَّغ خواطرها لعبادته من الفكر في أسباب المعاش ، وأسكنهم
في قصور تذكّرهم قصور الجنان ، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم
بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة ، وهم على طريقة شريفة ، وسُنّة في
المعاشرة عجيبة ، وعوائدهم من الاجتماع للسمع (أناشيد المتصوفة في الحب
الإلهي) المشوق جميلة ، وربما فارق منهم الدنيا في تلك الحالات المنفعلُ المتأثر

رقة وتشوقاً . . . ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء ، ولا سيما لحفاظ كتاب الله عز وجل والمنتمين للطلب (طلب العلم) فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جداً ، وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم . « وفي هذا الوقت الذي زار فيه دمشق كانت الحرب قائمة على قدم وساق بين صلاح الدين والصليبيين ، ولاحظ ابن جبير أن تجار الطرفين يغدون ويروحون في الدارين : دار الإسلام ودار الصليبيين بدون أى صعوبة تقوم في سبيلهم ، يقول :

« ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقي الجمعان وتقع المصافاة (الحرب) بينهم ، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . . . واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكّة كذلك ، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يُعْتَرَض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم ، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشغولون بحربهم والناس في عافية » .

وأشاد هنا بأعمال صلاح الدين وآثاره في الشام وانتصاراته على الصليبيين ، وندخل معه في شهر جمادى الآخرة وقد عزم على السفر إلى عكاء ليلتمس ركوب البحر مع تجار النصارى في مراكبهم المعدة لسفر الحريف ، ويصل إليها في اليوم العاشر من الشهر المذكور ، ومن حديثه عنها :

« هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام ومحطة الجوارى (السفن) المنشآت في البحر كالأعلام ، مرفأً كل سفينة ، والمشبهة في عظمها بالقسطنطينية ، يجتمع السفن والرفاق ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق ، يسكنها وشوارعها تنصّ بالزحام ، وتضيق فيها مواطئ الأقدام . . . انتزعها

الإفرنج من أيدي المسلمين في العشر الأول من المائة السادسة ، فبكى لها الإسلام ملء جفونه ، وكانت إحدى شجونه .

وسمع بمركب تقوم من الإسكندرونة ، فذهب إليها مارا « بصور » ، وفيها رأى عرساً لبعض الصليبيين ، فوصفه في دقة على هذا النحو :

« ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها ، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساء ، واصطفوا سباطين عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية ، حتى خرجت تهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال ، كأنهما من ذوى أرحامها ، وهى فى أبهى زى وأفخر لباس ، تسحب أذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصاية ذهب ، قد حفت بشبكة ذهب منسوجة وعلى لبنتها (أعلى صدرها) مثل ذلك منتظم ، وهى رافلة فى حُلِيِّها وحُلِّها ، تمشى فترا فى فتر ، مَشْىَ الحمامة أو سير الغمامة ، وأمامها جِيلة رجالها من النصارى فى أفخر ملابسهم البهية ، تسحب أذيالها خلفهم ، ووراءها أكفأؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين فى أنفس الملابس ، ويترُفُسنَ فى أرقل الحلى ، والآلات اللهوية قد تقدمتهم ، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد غدوا فى طريقهم سباطين ، يتطلعون فيهم ، ولا ينكرون عليهم ذلك ، فساروا بها حتى أدخلوها دار بَعْلها ، وأقاموا يومهم ذلك فى وليمة . »

ولا يُهَيَّأ لابن جبير السفر من صور ولا من الإسكندرونة ، فيعود إلى عكة ، ويجد سفينة مبحرة إلى مَسِينَة إحدى ثغور جزيرة صقلية ، فيبحر فيها عائداً إلى بلاده .

العودة إلى الوطن

ويركب البحر في الثامن من رجب سنة ٥٨٠هـ ، ويأخذ في وصف البحر ورياحه وعواصفه . وما زالوا فيه حتى أهلّ عليهم شعبان ، وتملكه اليأس أن يرجع إلى دياره ، ولم يلبث أن لمع له بريق الأمل حين مرت السفينة بجزيرة كريت (إقريطش) فاستشعر الأنس وغلب رجاءه اليأس ، ثم عاوده الخوف حين هبت على المركب بعض العواصف ، وهو في كل ذلك يبدع في الوصف والتصوير على نحو ما نرى في هذه القطعة :

« وفي النصف من ليلة الأحد الحادى عشر من شعبان انقلبت الريح غربية ، وجاءت عاصفة ، وأصبحنا يوم الأحد المذكور والهول يزيد ، والبحر قد هاج هائج ، وماج مائج ، فرى بموج كالجبال ، يصدم المركب صدمات يتقلب لها على عظمه ، تقلب الغصن الرطيب ، وكان كالسور علواً . . . ولما جن الليل اشتد تلاطمه ، وصكت الآذان غمغامه ، واستشرى عصف الريح ، فحطت الشرع ، واقتصر على الدلائن الصغار دون أنصاف الصواري . ووقع اليأس من الدنيا ، وودعنا الحياة بسلام ، وجاءنا الموج من كل مكان ، وظننا أننا قد أحيط بنا ، فيا لها ليلة يشيب لها سودُ الدوائب ، مذكورة في ليالى الشوائب ، مقدمة في تعداد الحوادث والنوائب . ونحن منها في مثل ليل صول (ليلة ذكرها شاعر قديم) طولا ، فأصبحنا ولم نكد . وكان من الاتفاقات الموحشة أن أبصرنا بر إقريطش عن يسارنا ، وجباله قد قامت أمامنا ، وكنا قد خلفناه عن يميننا ، فأسقطتنا الريح عن مجرانا ،

ونحن نظن أنا قد جُزّناهُ وسُقِطَ في أيدينا ، وخالفنا الهجري المعهود الميمون . . .
واستسلمنا للقدر ، وتجرعنا غُصَصَ هذا الكدر ، وقلنا :

سَيَكُونُ الَّذِي قُضِيَ تَخِيطَ الْعَبْدُ أَوْ رَضِيَ

. . . والحذر الحذر ، من ركوب مثل هذا الخطر ، وإن كان المخدور ،
لا يغني عن المقدور شيئاً ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وأخيراً وصلت السفينة إلى مَسِينَةِ بصقلية ، في اليوم الثالث من رمضان ،
بعد مكابدات ومشقات . وعجب ابن جبير من سلامته ، وحمد الله على
ما مَنَّ به ، من لطيف صنعه . ثم أخذ في وصف هذه المدينة ، فقال إنها :
« مقصد جوارى (سفن) البحر من جميع الأقطار ، كثيرة الإرفاق برخاء
الأسعار . . . تَغْصُّ بِقَاطِنِهَا ، وتكاد تضيق ذَرْعاً بِسَاكِنِهَا ، مملوءة نَسْناً
ورِجْساً ، موحشة لا توجد للغريب أنسا ، أسواقها نافقة حفيلة ، وأرزاقها
واسعة يارغاد العيش كفيلة ، لا تزال بها ليالك ونهارك في أمان ، وإن كنت
غريب الوجه واليد واللسان ، مستندة إلى جبال قد انتظمت حضيضها ونخاديقها ،
والبحر يعترض أمامها في الجهة الجنوبية منها . ومرساها أعجب مراسي البلاد
البحرية ، لأن المراكب الكبار تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسه ، وتُنْصَبُ
منها إلى البر خشبة يتصرّف عليها ، فالحمّال يصعد بحمله إليها ، ولا يحتاج
لزواريق في وسقها ولا في تفرينها ، إلا ما كان مرسياً على البعد منها يسيراً ،
فترابها مصطفة مع البر كاصطفاف البلياد في مرابطها وإصطبلاتها ، وذلك
لإفراط عمق البحر فيها » .

وأخذ يتحدث عن صقلية ، ومعروف أن المسلمين فتحوها منذ القرن
الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وظلوا فيها إلى أن فتحها النورمان سنة ١٠٩١
للميلاد وكان ملوكهم الأول يعاملون المسلمين معاملة حسنة ، وتقدم أن الإدريسي
ألف كتابه « نزهة المشتاق » لملكهم روجر الثاني واستعان هو وابنه غليوم في القرن

الثاني عشر الميلادي بالعرب في الزراعة والتجارة والملاحة ، وفسحا لهم في الحياة ، وتركوا لهم حريتهم الدينية . واليوم يزور ابن جبير الجزيرة في عهد غليوم سنة ١١٨٤ للميلاد ، ويشهد رفقه بالمسلمين ، ويشيد به وبسياسته ، وينوه باستخدامه العرب في الوظائف والمهن المختلفة ، ومن قوله فيه :

« هو كثير الثقة بالمسلمين ، وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله ، حتى إن الناظر في مطبخه رجل من المسلمين . . . ومن عجيب شأنه المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية ، وعلامته - على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به - الحمد لله حق حمده ، وكانت علامة أبيه : الحمد لله شكراً لأنعمه . وأما جواريه وحظاياه في قصره فسلمات كلهن ، ومن أعجب ما حدثنا به خديمه ، وهو يحيى بن فتیان الطراز : أن الإفرنجية من النصرانيات تقع في قصره ، فتعود مسلمة ، تُعيد لها الجوارى المذكورات مسلمة ، وهن على تكتّم في ذلك كله ، ولهن في فعل الخير أمور عجيبة . . . وأما فتياته الذين هم عيون دولته وأهل عمالته في ملكه فهم مسلمون ، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعاً وتأجراً ، ويتصدق تقرباً إلى الله وتزلفاً . . . ولهم في فعل الجميل أخبار ماثورة ، وفي افتكاك الأسرى صنائع عند الله مشكورة ، وجميع خدمتهم على مثل أحوالهم . ومن عجيب شأن هؤلاء الفتیان أنهم يحضرون عند مولاهم ، فيحين وقت الصلاة ، فيخرجون أفراداً من مجلسه ، فيقضون صلاتهم » .

ويتنقل بنا ابن جبير في الجزيرة بعينه الراصدة يحكي الآثار وأحوال المسلمين والمسيحيين ، متحدثاً عن الحصب المبتوث في ربوعها وما تحظى به من موارد غنية ، ونصل معه إلى حاضرتها « بالرم » ويصفها وسكانها على هذه الشاكلة :

« هي بهذه الجزيرة أم الحاضرة ، والجامعة بين الحسينين غصارة ونضارة ، فما شئت بها من جمال منظر ومخير ، ومرآد عيش يانع أخضر ، عتيقة أنيقة ،

مشرقة موقنة ، تتطلع بمراًى فتان ، وتتخايل بين ساحات وبساتين كلها
 بستان ، فسيحة السكك والشوارع ، تروق الأبصار بحسن منظرها البارع ،
 عجيبة الشأن ، قُرْطُبيّة البنيان ، ومبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكندّان ،
 يشفها نهر متعين ، ويطرد في جنباتها أربع عيون ، قد زُخِرَتْ فيها لملكها
 دنياه ، فاتخذها حضرة ملكه الإفرنجي أباده الله ، تنتظم بلبستها قصوره وانتظام
 العقود في نحور الكواعب ، ويُسْتَقْسَب من بساتينها وميادينها بين نزهة وملاعب ،
 فكُم له فيها — لا عمرت به — من مقاصير ومصانع ، ومناظر ومطالع . وكُم
 له بجهاتها من ديارات قد زخرف بنيانها ، ورُفِّدَ بالإقطاعات الواسعة رهبانها ...
 وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان ، يعمرّون أكثر مساجدهم .
 ويقىمون الصلاة بأذان مسموع ، ولهم أرباض (أحياء) قد انفردوا فيها
 بسكناهم عن النصارى ، والأسواق معمورة بهم ، وهم التجار فيها . ولا جمعة
 لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم . ويصلّون الأعياد بخطبة . دعاؤهم فيها للخليفة
 العباسي ، ولهم بها قاض يرتفعون إليه في أحكامهم . وجامع يجتمعون للصلاة
 فيه ، ويحتفلون في وقيدته (إنارته) في هذا الشهر المبارك ، وأما المساجد
 فكثيرة لا تحصى ، وأكثرها محاضر للمعلمي القرآن . وبالحملة فهم غرباء
 عن إخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار ، ولا أمن لهم في أموالهم ولا في حريمهم
 ولا أبنائهم وزىّ النصرانيات في هذه المدينة زىّ نساء المسلمات ،
 فصيححات الألسن ، ملتحفات ، مُسْتَقْبَات يلبسن ثياب الحرير المذهب ،
 ويلتحنن اللحف الرائقة ، وينتقبن بالنقب الملونة ، وينتعلن الأخفاف المذهبة ،
 يبرزن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلى والتخضب والتعطر .
 وكل هذه ملاحظات دقيقة ، ولاحظ قبلاً أن غليوم يتخذ بيت حريم
 على طريقة ملوك المسلمين ، وهو الآن يلاحظ أن نساءهم يتخذن زى
 المسلمات ، ويتحججن مثلهن ، ويتعطّون ويتخضبن ويتزين على طريقتن

كما يلاحظ أن التجارة في « بالرم » كانت لا تزال بأيدي المسلمين . وقد شكّا من أنهم يضطهدون أحياناً وأن كثيراً منهم كان يكتّم إسلامه ، وأن بعضاً تنصّروا . وقد أخذت تدلّ الدلائل كما لاحظ الرحالة الأندلسي على أن راية الإسلام لا بد أن تنكّس هناك وأن يصبح ماله من مساجد ومعالم أثراً بعد عين ، وكأنما كان سقوط صقلية في أيدي النورمان مقدمة لما أصاب العرب في الأندلس ، فقد خرجوا منها بعد سقوطها بأربعة قرون ، مخلفين وراءهم تاريخاً حافلاً بأعجاء حضارية باهرة .

وأبشحر ابن جبير من صقلية في اليوم التاسع من ذى الحجة ، وعاودته عواصف البحر ورياحه الهوجاء ، وبعد تعب مضنّ وصل إلى قرطاجنة على الشاطئ الأندلسي في الخامس عشر من شهر المحرم سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م وتابع السير إلى غرناطة ، وانتهى إليها في الثاني والعشرين من هذا الشهر . فكانت مدة رحلته سنتين وثلاثة أشهر ونصفاً . وعاوده الحنين إلى الشرق ، فرحل إليه رحلتين ، وتوفي بثانيتها في الإسكندرية سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م وكان قد اعتزم أن يمضي فيها بقية حياته .

الفصل الخامس

رحلة ابن بطوطة

١

حياته وتجوّاله في الآفاق

هو أبو عبد الله محمد بن محمد اللواتي الطنجي ، ويشتهر باسم ابن بطوطة ، ولد في طنجة سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م لأسرة عُنيت بالعلوم الشرعية ، وعُرفت بالبساطة في العيش والسعة . واهتم أبوه بتربيته ، فدرس الفقه والأدب ، وأصبح حريصاً بأن يكون قاضياً مثل كثير من أهله ، ولكن داعى الحج إلى البيت الحرام دعاه ، فلبّاه ، وخرج من بلده وهو في الثانية والعشرين من عمره سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤ م .

وأخذ طريقه إلى مصر مع قافلة من قوافل الحجاج ، وعرفوا فيه علمه وفقهه ، فجعلوه قاضياً عليهم . ولما وصل إلى الإسكندرية طاف بمشاهدها وزار علماءها وعُبادها ، ومن بينهم شيخ يسمى برهان الدين نزل عنده في ضيافته ثلاث ليال ، ولمح فيه رغبته في التجول بالبلاد ، فقال له : أراك تحبّ السياحة في الآفاق ، فأجابه : نعم ، ولم يكن خطّر بباله التوغل في البلاد القاصية مثل الهند والصين ، فقال له الشيخ : إني أحملك السلام إلى إخوة لي في الهند والسند والصين . فعجب من قوله . وبذلك ألقى الشيخ في روعه التوجّه إلى تلك البلاد .

ويرحل عن الإسكندرية إلى القاهرة ، ولكنه لا يذهب إليها مباشرة ،

بل يطوف ببعض البلاد في الوجه البحرى ، ويزور زوايا الصالحين والزهاد ، ومن زارهم ببلدة «فوة» بالقرب من «رشيد» شيخ صالح يسمى أبا عبد الله المرشدى ، وبات على سطح زاويته ، فرأى في منامه أنه على جناح طائر عظيم يطير به في سمت القبلة يتيامن ، ثم يشرق ، ثم يذهب في ناحية الجنوب ، ثم يبعد الطيران في ناحية الشرق ، وينزل في أرض مظلمة خضراء ، ويتركه بها . وقصّ رؤياه على الشيخ ، وسأله تأويلها . فقال له : سوف تحج وتزور النبى صلى الله عليه وسلم وتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند ، وتبقى بها مدة طويلة . وكان كل ذلك لإرهاصا برحلاته الواسعة ، بحيث عُدّ أعظم رحالة عرفه العرب في تاريخهم الوسيط ، ووصل إلى القاهرة والفسطاط وطاف بهما وبآثارهما ومشاهدهما ، ثم أخذ طريقه إلى الصعيد فعينذاب على البحر الأحمر ، ولكنه وجد الطريق فيها إلى جُدّة معطلا ، لخروج قبائل البجاة على سلطان مصر ، فعاد إلى الفسطاط ، وأخذ طريقه في صحراء سيناء إلى الشام وطاف ببلدانها ، ثم تحول إلى الحجاز وأدى فريضة الحج ، حتى إذا انتهى منها سافر إلى العراق مع قوافل الحجاج ، ونزل واسط والبصرة ، وألمّ ببعض المدن في غربى إيران ، ثم دخل الكوفة وبغداد وبعض مدن الموصل ، وأدركه زمان الحج ، فأدى الفريضة مرة ثانية ، وأقام بمكة مدة . ثم ركب البحر إلى اليمن وطاف ببلدانها ، وتركها إلى إفريقية الشرقية ، عابراً البحر إليها ، ثم عاد إلى بلاد العرب ماراً بشواطئها الجنوبية حتى الخليج الفارسى ، فزار ظفار وعمان والبحرين . ورجع إلى مكة فحج حجته الثالثة ، وولى وجهه نحو مصر ، ثم تركها إلى الشام وآسية الصغرى ، وكان بها حينئذ السلاجقة وأمراء الدولة العثمانية الأوّل . وأبحر من هناك إلى شبه جزيرة القرم ، وكانت تابعة لسلطان المغول محمد أوزبك ، وتنقل في بلاده وفي القوقاز والبلغار ودخل القسطنطينية مع زوجة السلطان المذكور ، ويقول في رحلته إنها بنت ملك الروم ، وقد ذهبت لزيارة أبيها ! .

ورحل بعد ذلك إلى خوارزم وبخارى . ثم تحول إلى بلاد أفغانستان ، ومنها دخل الهند سنة ٧٣٤ هـ / ١٣٣٣ م ولقى حظوة عند سلطانها محمد شاه ، فولاه قضاء دهلي ، وأقام بها ثمانى سنوات . وأرسله السلطان مع وفد يحمل هدية إلى ملك الصين ، وركب البحر مع الوفد إلى قندهار ومنها إلى قاليقوت إحدى الثغور الهندية في الغرب . ومحطة السفن الذاهبة إلى الصين . وبينما كان على شاطئ الثغر هبت عاصفة أغرقت المركب والهدية . فلم يرجع إلى السلطان ، بل تنقل في جزائر ذببة المهال (المديف) وتولى القضاء فيها عاماً وبعض عام ، ثم تركها إلى الصين عن طريق جزيرة سيلان والبنغال وركب البحر ماراً بشبه جزيرة الملايو . وتنقل في الصين مطلعاً على أحوال المسلمين هناك ، ثم رحل عنها ماراً بسومطرة ، ونزل في ظفار ، واتجه إلى بلاد العجم ، ثم تركها إلى ما بين النهرين وبلاد الشام ونزل مصر ، ثم رحل إلى عيذاب ، وأدى فريضة الحج للمرة الرابعة .

ثم رأى أن يعود إلى وطنه ، فمر بمصر ، ومنها أبحر إلى تونس ، فالجزائر ومراكش ، ووصل إلى فاس في شعبان سنة ٧٥٠ هـ حيث حظى برعاية السلطان أبي عنان المريني .

ورأى أن يزور الأندلس ، فرحل إليها رحلته الثانية ، ومر في طريقه بمسقط رأسه : طنجة ، وطاف ببلدان الأندلس ، وزار غرناطة ، ثم عاد إلى فاس . ومنها قام برحلته الثالثة (٧٥٣ - ٧٥٤ هـ) فزار بلاد السودان الغربي ، وتوغل في مجاهل إفريقية المتوسطة ، ثم رجع إلى فاس حيث أمضى بقية حياته . وأعجب السلطان أبو عنان بما يرويه من طرائف الأخبار وغرائب الأسفار ، فأمر كاتبه محمد بن جُزَيّ أن يروي عنه رحلته ، وعنى ابن جزى بذلك ، إذ كان أديباً بارعاً ، وأخرج الرحلة في شكلها الذي نقرؤه الآن ، وسماها (تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) وقد

أضاف فيها إضافات لم ينقلها عن ابن بطوطة . وإنما نقلها عن الراحلين قبله مثل ابن جبير . وأغلب الظن أن ما يتقدم وصف البلدان من بعض المسجعات . إنما هو من عمل هذا الأديب . وما من شك في أن مقدمة الرحلة المسجوعة من صنعه .

واهتم المستشرقون منذ أوائل القرن الماضي بهذه الرحلة . فنشروا منها قطعاً وأجزاء ، ثم نشرت كاملة مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٥٩ م وطبعت بعد ذلك في القاهرة طباعات مختلفة ، وترجمت إلى الألمانية سنة ١٩١٢ م . وكل هذه العناية لما تحوى من طرافة حقيقية في الخبر وقصصه وفي الحكاية عن البلاد القريبة والبعيدة في آسية وإفريقية .

ولم يترك ابن بطوطة بلداً نزل بها إلا وتحدث عن أهلها وسلطانها وعلمائها ومؤسساتها ، وبذلك كانت رحلته معرضاً كبيراً لحياة الأمم والأقاليم التي نزل بها من الوجهتين السياسية والاجتماعية . وكانت فيه نزعة دينية قوية ، فأطال الوقوف عند رجال الدين وأمور الإسلام وزوايا المتصوفة . ولن نستطيع أن نعرض رحلته في كل الأقطار ، فقد طالت . حتى استوعبت مجلدين كبيرين . ومن ثم رأينا أن نتابعه في الأقاليم التي لم يزرها ابن جبير . حتى لا تقع في تكرار ما شاهده سلفه ، وحتى نظرف القارئ بأخبار بلاد جديدة .

٢

من الأناضول إلى بلاد المغول

رأينا ابن بطوطة بعد حجته الثالثة يقصد إلى مصر ثم يتركها إلى الشام ويدخل الأناضول أو آسية الصغرى . ويتجول في بلدانها واصفاً آثارها ومساجدها

ومدارسها وحماماتها وأسوارها وسكانها ومنتحداً عن سلاطينها ، وكان لكل بلدة سلطان ينفرد بها من السلاجقة أو من العثمانيين الذين استطاعوا بعد رحلته أن يضموا هذه البلاد تحت لواثهم ، فكونوا دولتهم وفتحوا القسطنطينية ، وتوغلوا في أوربة وأقاموا إمبراطوريتهم المعروفة .

وأول بلدة نزل بها «العلايا» ، وكانت ثغراً على بحر الروم بالقرب من الشام . وراعه فيها كما راعه في غيرها من بلاد الأناضول نظامٌ لفتوة تقوم على الكرم وإيواء الغريب ، وهم جماعة من الشباب في كل بلدة يقيمون عليهم رئيساً لهم ، ويتخذون لأنفسهم مقراً ، يتعاونون فيه على البر بالضيف وإكرامه ، وتدعه يصف ذلك بلسانه ، يقول :

« ذكرُ الأخيَّة الفتيان : واحد الأخية أخى على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه . وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية ، في كل بلد ومدينة وقرية . ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالاً بالغرباء من الناس ، وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدي الظلمة . . والأخى عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم . وتلك هي الفتوة أيضاً . ويبني زاوية ، ويجعل فيها الفرش والسُّرُج وما يُحتاج إليه من الآلات . ويخدم أصحابه بالنهار في طلب معاشهم ، ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشترون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك مما ينفق في الزاوية ، فإن ورد في ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم ، وكان ذلك ضيافته لديهم ، ولا يزال عندهم حتى ينصرف ، وإن لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعامهم ، فأكلوا وغَسَّوْا ورقصوا ، وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدو ، وأتوا بعد العصر إلى مقدمهم بما اجتمع لهم . ويسمون بالفتيان ويسمى مقدمهم كما ذكرنا الأخي . ولم أر في الدنيا أجمل أفعالا منهم ، ويشبههم في أفعالهم أهل شيراز وأصفهان (من بلاد إيران) إلا أن هؤلاء أحب في الوارد والصادر ، وأعظم إكراماً وشفقة

عليه . وفي الثاني من يوم وصولنا إلى هذه المدينة أتى أحد هؤلاء الفتيان إلى الشيخ شهاب الدين الحموي (رفيق له) وتكلم معه باللسان التركي ، ولم أكن يومئذ أفهمه . وكان عليه أثواب خَلَقة ، وعلى رأسه قلنسوة لبد (صوف) فقال لي الشيخ : أتعلم ما يقول الرجل ؟ فقلت : لا أعلم ما قال ، فقال لي : إنه يدعوك إلى ضيافته أنت وأصحابك ، فعجبت منه ، وقلت له : نعم . فلما انصرف قلت للشيخ : هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفنا ، ولا نريد أن نكلفه . فضحك الشيخ ، وقال لي : هذا أحد شيوخ الفتيان الأخية ، وهو من الخرازين (إسكافي) وفيه كرم نفس ، وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدموه على أنفسهم ، وبنوا زاوية للضيافة ، وما يجتمع لهم بالنهار أنفقوه بالليل . فلما صليت المغرب عاد إلينا ذلك الرجل ، وذهبنا معه إلى زاويته ، فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومية الحسان ، وبها الكثير من ثُرَيَّات الزجاج العراقي ، وفي المجلس خمسة من البياسيس ، والبيسوس شبه المنارة من النحاس وله أرجل ثلاث . . وفي وسطه أبواب للفتيلة ، ويسمى من الشحم المذاب ، وإلى جانبه آنية نحاس مملأة بالشحم ، وفيها مقراض لإصلاح الفتيل ، وأحدهم موكل بها ، ويسمى عندهم الجراغجي . وقد اصطف في المجلس جماعة من الشبان ، ولباسهم الأقمية وفي أرجلهم الأخفاف . وكل واحد منهم متحزّم ، على وسطه سكين في طول ذراعين . وعلى رؤوسهم قلانس بيض من الصوف ، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها في طول ذراع وعرض إصبعين . فإذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ، ووضعها بين يديه . وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخاني (ضرب من الحرير) وسواه حسنة المنظر ، وفي وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين . ولما استقر بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ، ثم أخذوا في الغناء والرقص ، فراقنا حالهم ، وطال عجبنا من سماحهم وكرم أنفسهم . وانصرفنا عنهم آخر الليل ، وتركناهم بزاويتهم .

وكان ابن بطوطة كلما نزل ببلدة من بلاد الأناضول سأل عن الأخية ، وكانوا أحياناً لا يتظرونه حتى يسأل عنهم ، بل يتقدمون إليه ، وتتعارك جماعاتهم عليه . يقول في بلدة « لاذق » بعد أن وصف غياضها وأهلها وما يصنعون من ثياب القطن المعلمة بالذهب :

« وعند دخولنا لهذه المدينة مررنا بسوق لها ، فنزل إلينا رجال من حوانيتهم ، وأخذوا بأعنة خيلنا ، ونازعهم في ذلك رجال آخرون ، وطال بينهم النزاع ، حتى سئل بعضهم السكاكين على بعض ، ونحن لانعلم ما يقولون ، فحفظنا منهم وظننا أنهم البحرميان الذين يقطعون الطرق وأن تلك مدينتهم ، وحسبنا أنهم يريدون نهيبنا ، ثم بعث الله لنا رجلاً حاجباً يعرف اللسان العربي ، فسألته عن مرادهم منا ، فقال إنهم من الفتيان ، وإن الذين سبقوا إلينا أولاً هم أصحاب الفتى (أخى) سنان والآخرون أصحاب الفتى (أخى) طومان . وكل طائفة ترغب أن يكون نزولكم عندهم . فعجبنا من كرم نفوسهم ، ثم وقع بينهم الصلح على المقارعة ، فن كانت قرعته نزلنا عنده أولاً ، فوقع قرعة أخى سنان . وبلغه ذلك ، فأتى إلينا في جماعة من أصحابه ، فسلموا علينا ، ونزلنا بزاوية له ، وأتى بأنواع الطعام . ثم ذهب بنا إلى الحمام ، ودخل معنا ، وتولى خدمتي بنفسه ، وتولى أصحابه خدمة أصحابي ، يخدم الثلاثة والأربعة الواحد منهم . ثم خرجنا من الحمام ، فأتوا بطعام عظيم وخلواء وفاكهة كثيرة وبعد الفراغ من الأكل قرأ القراءُ آيات من الكتاب العزيز . ثم أخذوا في السماع والرقص . وأعلموا السلطان بخبرنا فلما كان من الغد بعث في طلبنا بالعشي ، فتوجهنا إليه . . ثم عدنا إلى الزاوية ، فالفينا (الأخى) طومان وأصحابه في انتظارنا ، فذهبوا بنا إلى زاويتهم ، ففعلوا في الطعام والحمام مثل أصحابهم ، وزادوا عليهم أن صبّوا علينا ماء الورد صبا بعد خروجنا من الحمام ، ثم مضوا بنا إلى الزاوية ، ففعلوا أيضاً من الاحتفال في الأطعمة والخلواء والفاكهة وقراءة القرآن بعد الفراغ من الأكل ثم السماع والرقص

كثّل ما فعله أصحابهم أو أحسن ، وأقمنا عندهم بالزاوية أياماً .

ويصف لنا سلطان كل بلدة ومَن حوله من الفقهاء والعلماء ، وما يمنحه من الهدايا والصلوات ، ولا ينسى أن يقص علينا حكايات الصالحين وما يُؤثّر عن بعض المتصوفة هناك . وندعه يتحدث عن مشهد جلال الدين الرومي أعظم شعراء الإسلام المتصوفين ، وقد أُلِمّ بقبره في مدينة «قونية» وسمع عنه بعض حكاياته :

« بهذه المدينة تُربة الشيخ الإمام الصالح القطب جلال الدين المعروف بمولانا ، وكان كبير القدر . وبأرض الروم طائفة ينتمون إليه ويعرفون باسمه ، فيقال لهم الجلالية ، كما تعرف الأحمديّة بالعراق والحيدرية بخراسان . وعلى تربته زاوية عظيمة ، فيها الطعام للوارد والصادر . يُذكرُ أنه كان في ابتداء أمره فقيهاً مدرساً ، يجتمع إليه الطلبة بمدرسته بقونية ، فدخل يوماً إلى المدرسة رجل يبيع الحلواء ، وعلى رأسه طبق منها ، وهي مقطوعة قطعاً ، يبيع القطعة منها بفلس . فلما أتى مجلس التدريس قال له الشيخ : هات طبقك ، فأخذ الحلواني قطعة منه وأعطاهم للشيخ ، فأخذها الشيخ بيده وأكلها . فخرج الحلواني ، ولم يطم أحداً سوى الشيخ ، فخرج الشيخ في اتباعه ، وترك التدريس ، فأبطأ على الطلبة ، وطال انتظارهم إياه ، فخرجوا في طلبه ، فلم يعرفوا له مستقراً . ثم إنه عاد إليهم بعد أعوام ، وصار لا ينطق إلا بالشعر الفارسي المتعلق (ذو القافية الواحدة في الشطرين) الذي لا يفهم ، فكان الطلبة يتبعونه ، ويكتبون ما يصدر عنه من ذلك الشعر ، وألقوا منه كتاباً سموه المثنوى (اسم هذا الضرب من الشعر الفارسي) . وأهل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب ، ويعتبرون كلامه ، ويعلمونه ، ويقرأونه بزواياهم في ليالي الجمععات . »

وما زال ينتقل بين زوايا الأنحيات في الأناضول حتى انتهى إلى « صنبوب » على البحر الأسود ، وركب البحر منها إلى ثغر الكورش في شبه جزيرة القرم ، وتحول عنها إلى مدينة القرم ، وكانت تابعة للسلطان محمد أوزبك خان المغول المعروفين بالقبيلة الذهبية ، وكانوا قد دخلوا في الإسلام ، بعد غاراتهم المشهورة على العالم الإسلامي بقيادة هولاكو مخرب بغداد ، ولولا وقوف جيوش مصر بقيادة

الظاهر ببيرس في وجوههم وهزيمتهم لم تسم طوفانهم العالم الإسلامي .
وأكرم حاكم القرم ابن بطوطة وصحبه ، ودعاهم إلى مرافقته لزيارة السلطان
محمد أوزبك بحاضرتة ، ولبي الدعوة ابن بطوطة ، واستخدم في ذهابه إليه
ضرباً من العربات تجرها الخياد كانوا يستخدمونه في أسفارهم ، ووصفها بقوله :
« هي عجلات ، تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار ، ومنها ما يجره
فرسان ، ومنها ما يجره أكثر من ذلك ، وتجرها أيضاً البقر والجمال على حال
العربة في ثقلها أو خفتها . والذي يخدم العربة يركب إحدى الأفراس التي
تجرها ، ويكون عليها سرج ، وفي يده سوط يحركها للمشى ، وعود كبير يصوبها
به إذا عاجت عن القصد . ويُجعل على العربة شبه قبة من قضبان خشب ،
مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق ، وهي خفيفة الحمل وتكسى باللبد
(الصوف) أو بالملف (الخوخ) . ويكون فيها طيقان مشبكة ، ويرى الذي
بداخلها الناس ولا يرونه ، ويتقلب فيها كما يحب ، وينام ، ويأكل ، ويقرأ ،
ويكتب ، وهو في حال سيره . والتي تحمل الأثقال والأزواد وتخزن الأطعمة
من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا ، وعليها قفل . وجهزت
لما أردت السفر عربة لركوبي مغشاة باللبد ، ومعها جارية لي ، وعربة صغيرة
لرفيقي عفيف الدين التوزري ، وعجلة كبيرة لسائر الأصحاب يجرها ثلاثة من
الجمال ، يركب أحدها خادم العربة . ولم يكن السلطان في حاضرتة ، التي
تسمى (السرا) شمالي بحر خوارزم ، وإنما كان معسكراً بالقرب منها في موضع
يقال له (بنش دغ) أي الجبال الخمسة . ووصف جيشه بأنه يشبه مدينة عظيمة
تسير بأهلها ، ففيه المساجد والأسواق والمطابخ ، وكل ذلك تحمله العربات ،
حتى إذا نزلوا مكاناً أنزأوا البيوت عن العربات وكذلك يصنعون بالمساجد والخوانيث .
ودخل على السلطان محمد أوزبك ، وأعجب بمجلسه الذي كان يتخله في كل
يوم جمعة بعد الصلاة ، يقول :

« إنه يجلس في قبة تسمى قبة الذهب ، مزينة بديعة ، وهي من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب ، وفي وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الفضة المذهبة ، وقوائمه فضة خالصة ، ورءوسها مرصعة بالجوهر ، ويقعد السلطان على السرير ، وعلى يمينه الخاتون (زوجته) طيِّطُغُلى ، ويليها الخاتون كَبَكْ ، وعلى يساره الخاتون بَيَكُون ، وتليها الخاتون أَرْدُجى . ويقف أسفل السرير على اليمين ولد السلطان تين بك ، وعن الشمال ولده الثانى جان بك . وتجلس بين يديه ابنته إيت كُجُجُك . وإذا أتت إحداهن قام لها السلطان ، وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير . وأما طييطغلى وهي الملكة وأحظاهن عنده فإنه يستقبلها إلى باب القبة ، فيسلم عليها ، ويأخذ بيدها ، فإذا صعدت على السرير وجلست حينئذ يجلس السلطان . وهذا كله على أعين الناس دون احتجاج . ويأتى بعد ذلك كبار الأمراء ، فتنصب لهم كراسيهم عن اليمين وعن الشمال ، وكل إنسان منهم إذا أتى مجلس السلطان يأتى معه غلام بكرسيه . ويقف بين يدى السلطان أبناء الملوك من بنى عمه ، وإخوته وأقاربه . ويقف فى مقابلتهم عند باب القبة أولاد الأمراء الكبار ، ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وشمال . ثم يدخل الناس للسلام ، الأمثل فالأمثل ، ثلاثة ، ثلاثة ، فيسلمون وينصرفون فيجلسون على بعد . فإذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة من الخواتين ثم ينصرف سائرهن . »

ويُفيض في الحديث عن كل ملكة أو زوجة من زوجات السلطان وجواربها وماليكها ، ويحدثنا عن عطفهن عليه ، ثم يذكر أنه رغب في زيارة مدينة بلغار في حوض نهر القوبلج الأوسط ، وعرف السلطان رغبته فأرسل معه من هداه الطريق . وقد حاول أن يدخل في إقليم ويسوا ويورا شمالي البلغار إلى المحيط المتجمد الشمالى ، ويسميه أرض الظلُئمة ، ثم أضرب عن ذلك لعظم المشقة فيه ، ومن طريف ما قاله عنه مما سمعه من الناس :

« السفر إلى هذه الأرض المظلمة لا يكون إلا في عجلات صغار تجرّها كلاب كبار ، فإن تلك المفازة فيها الجليد ، فلا يثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابة فيها ، والكلاب لها الأظفار ، فتثبت أقدامها في الجليد . ولا يدخلها إلا الأقوياء من التجار الذين يكون لأحدهم مائة عجلة ، أو نحوها ، موقرة (محملة) بطعامه وشرابه وحطبّه ، فإنها لا شجر فيها ولا حجر ولا مدرّ (حصا) . والدليل بتلك الأرض هو الكلب الذي قد سار فيها مراراً كثيرة . وتنتهى قيمته إلى ألف دينار ونحوها . وتربط العربّة إلى عنقه ، ويقرّنُ معه ثلاثة من الكلاب ، ويكون هو المقدّم ، وتتبعه سائر الكلاب بالعربات ، فإذا وقف وقفت . وهذا الكلب لا يضربه صاحبه ، ولا ينهره ، وإذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولاً قبل بني آدم ، وإلا غضب الكلب وفرّ وترك صاحبه للتلّف . فإذا كملت للمسافرين بهذه القلّة أربعون مرحلة فزلوا عند الظلمة ، وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك ، وعادوا إلى منزلهم المعتاد . فإذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم ، فيجدون بإزائه من السمّور والسّنجاب والقاقم (أنواع من الفراء) . فإن أرضى صاحب المتاع ما وجدته إزاء متاعه أخذه ، وإن لم يرضه تركه ، فيزيدونه ، وربما رفعوا متاعهم ، أعنى أهل الظلمة ، وتركوا متاع التجار . وهكذا بيعهم وشراؤهم . ولا يعلم الذين يتوجهون إلى هنالك من يبايعهم ويشاريهم أمن الجحش هو أم من الإنس ، ولا يرون أحداً . والقاقم هو أحسن أنواع الفراء ، وتساوى الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار وهي شديدة البياض من جلد حيوان صغير في طول الشبر وذنبه طويل والسمّوردون ذلك تساوى الفروة منه أربعمئة دينار . »

وربما كان في خبره عن بيع أهل الظلمة وشراؤهم ضرباً من المبالغة . وقد عاد من مدينة البلغار إلى حضرة السلطان ، فأرسله مع إحدى زوجاته لزيارة أبيها ملك القسطنطينية ، كما يقول . وزار هذه البلدة وطاف في البلاد

الواقعة بشمالها، ثم عاد إلى السلطان وكان في حاضرتة « السرا » ، وأشاد بهذه المدينة وبمبانيها واتساع رقعتها ، ونوه بشيخ فقيه فيها يسمى نعمان الدين الخوارزمي . وقال إن السلطان يزوره في كل جمعة فلا يستقبله ولا يقوم إليه ، ويقعد السلطان بين يديه ، ويكلمه أطف كلام ويتواضع إليه ، والشيخ يترفع عليه ، حتى إذا حضره الفقراء والمساكين تواضع لهم وكلمهم بأطف كلام ، وأكرمهم .

ويشد ابن بطوطة الرِّحال من حضرة هذا السلطان ، وينزل بغيره من سلاطين المغول في التركستان ، ثم يخرق بلاد خراسان وأفغانستان إلى الهند . ويصف لنا كل بلدة ألم بها ، ويطرفنا بالحكايات عن الصالحين ، وعما يصله من هدايا القضاة والعلماء والسلاطين . ومن طريف ما ذكره عن السلطان طرمشيرين سلطان المغول فيما وراء النهر (التركستان) أنه حضرت صلاة العصر يوماً ولم يحضر إلى المسجد قبل الأذان للصلاة ، كعادته ، وجاء أحد فتيانه بسجادة ووضعها أمام المحراب الذي يصلي فيه ، وقال للإمام وكان اسمه حسام الدين : إن السلطان يريد أن تنتظره بالصلاة قليلاً ريثماً يتوضأ ، فقال الإمام : الصلاة لله أو لطرشيرين ؟ ثم أمر المؤذن بإقامة الصلاة . وجاء السلطان ، وقد صلى الإمام ركعتين من صلاة العصر ، فصلى الركعتين الآخرين حيث انتهى به القيام ، وذلك في الموضع الذي تكون فيه نعال الناس عند باب المسجد . وقام إلى الإمام ليصافحه ، وهو يضحك .

٣

في الهند

وصل ابن بطوطة إلى الهند في أول شهر المحرم سنة ٧٣٤ هـ / ١٣٣٣ م ، وكان سلطانها حينئذ محمد شاه ، وأخذ ينتقل في البلاد التابعة له بالإقليم

المعروف باسم السند، وفيها رأى حيوان الكركدن ووصفه بأنه أسود اللون عظيم
البحرم ، ضخيم الرأس ، ولذلك يضربون به المثل هناك ، فيقولون رأس بلا بدن ،
وهو دون الفيل ، ولكن رأسه أكبر من رأس الفيل وأعظم ، وله قرن واحد
بين عينييه طوله نحو ثلاثة أذرع وعرضه نحو شبر .

وعلى هذا النحو أخذت عين ابن بطوطة ترصد وتسجل كل ما بالهند
من أنهار وأشجار وفواكه وحبوب ، كما أخذت ترصد وتسجل عادات البلاد
والسكان وأمور ولائهم وحكائهم . وعلى سُنَّتِهِ كلما نزل ببلدة اتصل بمن
يسوسون أهلها من قبيل السلطان وروى لنا ضيافتهم وحسن رعايتهم له ، وصور
لنا مجالسهم ومواكبهم في البر ونهر السند ، غير غافل عما هناك من مراسيم
بين المسلمين . وراعه حرق الهندوس لموتاهم بالنار ، وتحريق النساء مع
أزواجهن حين يموتون ، وتقربهم إلى إلههم بالغرق في نهر الكنج المقدس ،
وفي ذلك يقول :

« رأيت الناس يُهْتَرَعُونَ ومعهم بعض أصحابنا ، فسألتهم ما الخبر ؟ فأخبروني
أن كافراً من الهند مات وأجّجت النار لحرقه ، وامرأته تحرق نفسها معه .
ولما احترقا جاء أصحابي وأخبروني أنها عانقت الميت ، حتى احترقت معه .
وبعد ذلك كنت في تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهند متزينة راكبة ،
والناس يتبعونها من مسلم وكافر ، والأطبال والأبواق بين يديها ومعها البrahمة ،
وهم كبراء الهند . وإذا كان ذلك ببلاد السلطان (يريد السلطان محمد شاه)
استأذنوا السلطان في إحراقها ، فيأذن لهم ، فيحرقونها . ثم اتفق بعد مدة
أنى كنت بمدينة ، أكثر سكانها الكفار ، تعرف بأجبرى ، وأميرها مسلم . . .
وعلى مقربة منها الكفار العصاة ، فقطعوا الطريق يوماً ، وخرج الأمير المسلم
لقتالهم ، وخرجت معه رعيته من المسلمين والكفار ، ووقع بينهم قتال شديد
مات فيه من رعيته الكفار سبعة نفر ، وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات ،

فاتفقن على إحراق أنفسهن . وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب ، لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك ، ونُسبوا إلى الوفاء ، ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب ، وأقامت عند أهلها بائسة ممتحنة ، لعدم وفائها ، ولكنها لا تكرر على إحراق نفسها . ولا تعاهدت النسوة الثلاث اللاتي ذكرناهن على إحراق أنفسهن أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب وأكل وشرب كأنهن يودعن الدنيا . وأتى إليهن النساء من كل جهة . وفي صبيحة اليوم الرابع أتيت كل واحدة منهن بفرس ، فركبته ، وهي متزينة متعطرة ، وفي يدها جوزة نارجيل تلعب بها ، وفي يسراها مرآة تنظر فيها وجهها ، والبراهمة يحفون بها ، وأقاربها معها ، وبين يديها الأطباء والأبواق والأنفار (جمع نفير) وكل إنسان من الكفار يقول لها : أبلغني السلام إلى أبي أو أخي أو أمي أو صاحبي ، وهي تقول : نعم ، وتضحك إليهم . وركبت مع أصحابي لأرى كيفية صنعهن في الاحتراق ، فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال ، وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار ، متكاثف الظلال ، بين أشجاره أربع قباب ، في كل قبة صنم من الحجارة ، وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال وتزاحمت الأشجار ، فلا تتخللها الشمس ، فكان ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم أعادنا الله منها . ولما وصلنا إلى تلك القباب نزلنا إلى الصهريج وانغمسنا فيه ، وجردنا ما علينا من ثياب وحلي ، فتصدقن به ، وأتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط ، فربط بعضه على وسطها وبعضه على رأسها وكتفها ، والتيران قد أضربت على قرب من ذلك الصهريج في موضع منخفض ، وصُب عليها زيت الجللجان ، فزاد في اشتعالها ، وهناك نحو خمسة عشر رجلاً ، بأيديهم حزم من الحطب الرقيق ، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشبات كبار ، وأهل الأطباء والأبواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة ، وقد حجبت النار بملحفة ،

يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر إليها ، فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحقة نزعتهما من أيدي الرجال بعنف ، وقالت لم بالهندية وهى تضحك ما معناه : أبالنار تخوفوننى ؟ أنا أعلم أنها نار محرقة ، ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار ، ورمت بنفسها فيها . وعند ذلك ضربت الأبطال والأثفار والأبواق ، ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها ، وجعل الآخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرك ، وارتفعت الأصوات وكثر الضجيج . ولا رأيت ذلك كدت أسقط عن فرسى لولا أصحابي تداركونى بالماء ، فغسلوا وجهى وانصرفت . وكذلك يفعل أهل الهند أيضاً فى الغرق ، يغرق كثير منهم أنفسهم فى نهر الكنج ، وهو الذى إليه يحجون ، وفيه يُرمى برماد هؤلاء المحرقين ، وهم يقولون إنه من الجنة . وإذا أتى أحدهم ليغرق نفسه يقول لمن حضره : لا تظنوا أنى أغرق نفسى لأجل شىء من أمور الدنيا أو لقلّة مال ، إنما قصدى التقرب إلى كُسَاى ، وكساي اسم الله عز وجل بلسانهم ، ثم يغرق نفسه ، فإذا مات أخرجوه وأحرقوه ورموا برماده فى النهر المذكور .

ونمضى معه ، وهو يتنقل فى بلاد الهند حَفِيّاً به الأمراء والقضاة والفقهاء حتى نصل معه إلى دهلى (دلهى) ، ويصفها لنا وصفاً دقيقاً ، ويقول إن سورها ليس له نظير ، فعرض حائطه إحدى عشرة ذراعاً ، وفيه بيوت يسكنها السُمّار (الحرس) وحفّاظ الأبواب ، وفيه مخازن للطعام ومخازن للعدد ومخازن للمجانيق . وأسفل هذا السور مبنى بالحجارة وأعلاه بالآجر ، وأبراجه كثيرة متقاربة . وفيه ثمانية وعشرون باباً . وأشاد بجامع دهلى وقال إن فيه ثلاث عشرة قبة ، وله أربعة من الصحن ، وفى وسطه عمود هائل ، وفى صحته الشمالى صومعة لا نظير لها فى بلاد الإسلام ، ورأسها من الرخام الخالص ، وتفاحاتها (رموس أعمدتها) من الذهب الخالص ، وسعة ممرها بحيث تصعد فيه الفيلة . ويقول إن هذا الجامع كان بُدُنْخانهُ أى بيت أصنام ، فلما فُتحت دهلى

سنة ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م حوَّله الفاتحون إلى هذا المسجد العظيم .
 ويعرض لنا ابن بطوطة بعض مزارات دهلي ويتحدث عن علمائها وعُبادها ، ثم
 يخرج إلى حديث مفصل عن تاريخها منذ فتحها المسلمون ومن تملكها من السلاطين
 حتى سلطانها الأخير محمد شاه . ويفرد فصولاً طويلاً للحديث عن هذا
 السلطان وقصره في دهلي ومجلسه ومراسيمه في هذا المجلس ، وقعوده للغرباء
 واهتمامه بهم وتوظيفه لهم في الوظائف الكبرى بسلطنته ، ويفيض في الحديث
 عما يسبغه عليهم من الإنعام وولاية الخطط الرفيعة ، ومما يقول في وصفه إنه
 « أحب الناس لإسداء العطايا وإراقة الدماء ، فلا يخلو بابه من فقير يتغنى
 أو حتى يقتل ، وقد شُهرت في الناس حكاياته في الكرم والشجاعة وحكاياته
 في الفتك والبطش » ويكثر ابن بطوطة من الحكايات في الجائنين مصوراً غنى
 هذا السلطان وكثرة ما بخزائنه من الخلي والذهب . ونكتفي من ذلك بتصويره
 لاحتفاله بيوم العيد ، يقول :

« يُفْرَشُ القصر يوم العيد ويزين بأبدع الزينة ، وتُضْرَبُ البَارَكَةُ على
 المشور (المجلس) كله ، وهي شبه خيمة عظيمة على أعمدة ضخام كثيرة ،
 وتحفها القباب من كل ناحية ، ويصنعُ شبه أشجار من حرير ملون فيها شبه
 الأزهار ، ويجعل منها ثلاثة صفوف بالمشور ، ويجعل بين كل شجرتين
 كرسيّ ذهب عليه مرتبة مغطاة ، وينصبُ السرير الأعظم في صدر المشور ،
 وهو من الذهب الخالص كله ، مرصع القوائم بالجوهر ، وطوله ثلاثة وعشرون
 شبراً ، وعرضه نحو النصف من ذلك . وهو منفصل ، وتجمع قطعه ،
 فتتصل ، وكل قطعة منها يحملها جملة رجال لثقل الذهب ، وتجعل فوقه
 المرتبة . ويرْفَعُ الشطر المرصع بالجواهر على رأس السلطان . وعندما يصعد
 على السرير ينادى الحجاب والنقباء بأصوات عالية : باسم الله ، ثم يتقدم
 الناس للسلام ، فأولهم القضاة والخطباء والعلماء والشرفاء والمشايخ وإخوة السلطان

وأقاربه وأصهاره ثم الأعزة (الغرباء) ثم الوزير ، ثم أمراء العساكر ، ثم شيوخ الماليك ، ثم كبار الأجناد ، يسلم واحد إثر واحد من غير تزامم ولا تدافع . . . وإذا فرغ الناس من السلام وُضع لهم الطعام على حسب مراتبهم . وتنصَّب في ذلك اليوم المبخرة العظمى ، وهى شبه برج من خالص الذهب منفصلة ، فإذا أرادوا اتصالها وصلوها . وتحمل القطعة الواحدة منها جملة من الرجال ، وفى داخلها ثلاثة بيوت ، يدخل فيها المبخرون يوقدون العود . . . والعنبر الأشهب والجواهر حتى يعم دخانها المشور كله . ويكون بأيدي فتیان براميل الذهب والفضة مملوءة بماء الورد وماء الزهر يصبونه على الناس صبا . . . ويأتى أهل الطرب فيغنين ويرقصن . ويكون جلوس السلطان لذلك بعد العصر . . . ويعطى الصدقات ويكثر منها .

وما نزال مع ابن بطوطة فى عرضه لمكارم السلطان وكثرة من فتاك بهم من الأعوان متحدثاً عن كثير من شئونه وشئون رعيته . وأخيراً يحدثنا عن حياته فى دهلى فيذكر لنا أنه حين قدم عليها كان السلطان غائباً ، فاستقبله هو وصحبه الوزير خواجه جهان ، واحتفل بمقدمهم احتفالاً كبيراً . ويقدم السلطان ، فيلقاه ويخلع عليه الخلع السنية والعطايا الجزيلة ، وينعم عليه بولاية القضاء فى عاصمته ، وتبسم له الدنيا نحو ثمانى سنوات فى ظل هذه الوظيفة ورعاية السلطان ، ثم تحدث بينهما جفوة ، ويهم السلطان بإنزال جام غضبه عليه ، فيعتزل عمله ، ويخرج عن جميع ما ملكه للفقراء ، ويلزم بعض الزهاد ، وينقلب متعبداً صائماً يلبس ثياب الفقراء . ويعلم السلطان بما صار إليه ، فيعطف عليه ، ويرسله على رأس وفد بهدية إلى ملك الصين . ويأخذ طريقه إلى « قاليقوت » فى غرب الهند ليركب البحر منها إلى ثغور الصين ، ويحدثنا عما مر به من بلاد إلى هذا الثغر ، ويطرفنا من حين إلى آخر على عادته ببعض الحكايات أو ببعض عادات الهنود ، فمن ذلك حكايته عن

الشيخ محمد العريان القاطن بمصر ، فقد ذكر تلميذاً زاهداً له هناك عنه وكان يتسمى باسمه أنه :

« كان قائماً على قدم التجرد . . . وكان إذا صَلَّى العشاء الآخرة أخرج كل ما بقى بزاويته من طعام وإدام وماء وفرَّق ذلك على المساكين ، ورمى بفتيلة السراج وأصبح على غير معلوم . . . ومن حكاياته أنه لما وصل ملك التتر إلى الشام بعساكره ، وملك دمشق ما عدا قلعتها ، وخرج الملك الناصر (قلاوون) إلى مدافعته ، ووقع اللقاء على مسيرة يومين من دمشق . . . وكان الشيخ العريان في صحبته نزل وأخذ قيداً ، فقيّد به فرس الملك الناصر لئلا يترشح عند اللقاء . فيكون ذلك سبب هزيمة المسلمين . فثبت الملك الناصر ، وهزم التتر هزيمة شنعاء . »

ويحدثنا عن انتشار السحر في الهند واعتقاد أهلها في أن السحرة هناك ويسمون الجوكية يتصورون في صور الحيوانات ، ولعل هذا الاعتقاد شعبية من شعب الإيمان بالتناسخ . ومن طريف ما يقصه عن هؤلاء الجوكية أو السحرة أن السلطان محمد شاه بعث إليه يوماً ، فدخل عليه فوجد عنده رجلين منهم وهما يلتحفان بالملاحف ويغطيان رأسيهما ، وأمره السلطان بالجلوس فجلس ، فقال لهما : إن هذا الشخص من بلاد بعيدة ، فأرياه من غريب صنعكما . وصدعا بأمره ، ولترك ابن بطوطة يتم الحكاية بلسانه :

« فتربّع أحدهما ، ثم ارتفع عن الأرض ، حتى صار في الهواء فوقنا متربّعاً ، فعجبت منه وأدركني الخوف ، فسقطت إلى الأرض . فأمر السلطان أن أَسْقِ دواء عنده ، فأفقتُ وقعدت ، وهو على حاله متربّع . فأخذ صاحبه نَعْلَلاه من شكارة (جوالق صغير) كانت معه ، فضرب بها الأرض كالغناظ ، فصعدتُ إلى أن علتُ فوق عنق المتربّع ، وجعلت تضرب في عنقه ، وهو يتزل قليلاً قليلاً حتى جلس معنا . فقال لي السلطان : إن المتربّع هو تلميذ

صاحب النعل . ثم قال : لولا أنى أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت . فانصرفت عنه ، وأصابني الخفقان ومرضت ، حتى أمر لى بشرية أذهبت ذلك عني .

ونظن أن المرض الذى أصاب ابن بطوطة ليس إلا ضرباً من التنويم . حتى خيّل إليه الساحر ما خيل ، وسرى ساحراً آخر فى الصين ينومه أو يمرضه كما يقول .

٤

من قنندهار إلى الصين

ركب ابن بطوطة البحر مع وفد السلطان محمد شاه من ثغر قندهار ، وكانت وجهتهم قاليقوت أكبر الثغور الهندية فى الغرب . حيث تجتمع مراكب الصين واليمن وفارس يلتقى تجار الآفاق ، وإنما اتجهوا إليها ، ليسافروا منها على بعض المراكب الصينية الكبيرة .

ولم يتجهوا إلى قاليقوت مباشرة ، بل ألبوا بالثغور الهندية شمالها مثل هينور ، ووصف لنا شجرات الفلفل ، فقال إنها تشبه دوالى (عيدان) العنب ، وهم يفرسونها لإزاء النارجيل (جوز الهند) فتصعد عليها كصعود عيدان العنب على الأشجار ، وتثمر عناقيد صغيرة ، يقطفونها فى الحريف ، ويفرشونها على الحُصِر فى الشمس ، كما يصنع بالعنب ، ولا يزالون يقلبونها حتى يستحكم يَبْسُها ، ثم يبيعونها للتجار . وانتهى إلى قاليقوت مع الوفد والهدية ، وأعيد لهم جُنْدُك صينى (سفينة كبيرة) ليحملهم فى البحر ، ونقلت إليه الهدية ، ونزل فيه صحبه ، وتخلّف هو قليلا على الشاطئ ، وتصادف

أن هبت ريح عاصفة أغرقت الجناك بمن فيه . وارتاع ابن بطوطة ، وصمم أن لا يعود إلى السلطان . ويمتّم نحو جزائر ذبية المهل (ملديف) في جنوبي الهند إلى الغرب . ومما يقوله في وصفها :

« هذه الجزائر إحدى عجائب الدنيا . وهي نحو ألى جزيرة ، ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة . لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب إلا منه وهي من التقارب بحيث تظهر رعوس النخل التي ياحداها عند الخروج من الأخرى . وهذه الجزائر أهلها كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح . وهي منقسمة أقاليم ، على كل إقليم وال . وأكل أهلها سمك يسمونه قلب الماس . ولحمه أحمر ولا ذفر له . وإنما ريحه كريح لحم الأنعام ومعظم أشجار هذه الجزائر النارجيل (جوز الهند) وهو من أقواتهم مع السمك وتثمر النخلة منها اثني عشر عيداً (كباسة أو سباطة كالعنقود) في السنة . يخرج في كل شهر عيد ، فيكون بعضها صغيراً وبعضها كبيراً ، وبعضها يابساً وبعضها أخضر . هكذا أبداً . ويصنعون منها الحليب والزيت والعسل ويصنعون من عسله الحلواء . فيأكلونها مع الجوز اليابس منه . ومن أشجارها الأترج والليمون والقلقاس . وأهل هذه الجزائر أهل صلاح وديانة وفي كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة ، وأكثر عمارتهم الخشب ، وهم أهل نظافة وتنزه عن الأقدار ، وأكثرهم يغتسلون مرتين في اليوم تنظفاً لشدة الحر بها وكثرة العرق . ويكثر من الأدهان العطرية ولباسهم فوط ، يشدون الفوطة منها على أوساطهم عوض السراويل ، ويجعلون على ظهورهم ثياباً كالحرمين ، وبعضهم يجعل عمامة وبعضهم منديلاً صغيراً عوضاً عنها ومن عاداتهم أنه إذا تزوج الرجل منهم ومضى إلى دار زوجته بسطت له ثياب القطن من باب دارها إلى باب البيت ، وجعل عليها غمرات من الودع عن يمين طريقه إلى البيت وشماله ، وتكون المرأة واقفة

عند باب البيت تنتظره ، فإذا وصل إليها رمت على رجليه ثوباً يأخذه خذمه .
وإن كانت المرأة هي التي تأتي إلى منزل الرجل بسطت (فرشت) داره وجعل
فيها الودع ، ورمت المرأة عند الوصول إليه الثوب على رجليه . وكذلك عاداتهم
في السلام على السلطان عندهم ، لا بد من الثوب يرمى عند ذلك وجميعهم
حفاة الأقدام من رفيع ووضيع ، وأزقتهم مكنوسة نقية تظللها الأشجار ،
فالمأشى بها كأنه في بستان . . . وصرف (نقد) أهل هذه الجزائر الودع . . .
وهذا الودع أيضاً صرف السودان في بلادهم . رأيت يباع بحساب ألف ومائة
وخمسين للدينار الذهبي . . . ونساؤها لا يغطين رعوسهن ، ويمشطن شعورهن ،
ويجمعنها إلى جهة واحدة ، ولا يلبس أكثرهن إلا فوطة واحدة تسترهن من
السرة إلى أسفل ، وسائر أجسادهن مكشوفة ، وكذلك يمشين في الأسواق
وغيرها . . . وحليهن الأساور ، تجعل المرأة منها جملة في ذراعها بحيث تملأ
ما بين الكوع والمرفق . . . والتزوج بهذه الجزائر سهل لنزارة الصداق وحسن
معاشرة النساء ، وأكثر الناس لا يسمى صداقاً . . . وإذا قدمت المراكب
تزوج أهلها النساء ، فإذا أرادوا السفر طلقوهن . وهن لا يخرجن عن بلادهن
أبداً ، ولم أر في الدنيا أحسن معاشرة منهن ، ولا تكل المرأة عندهم خدمة
زوجها إلى سواها ، بل هي تأتيه بالطعام ، وترفعه من بين يديه ، وتغسل
يده ، وتأتيه بالماء للوضوء . ومن عاداتهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها ،
ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة . »

وألقي ابن بطوطة عصا ترحاله في هذه الجزر لمدة سنة ونصف ، حظى
فيها برضا السلطنة إذ كانت تحكم أهلها امرأة عاقلة كما حظى برضا وزيرها ،
ولم يلبث أن ولى القضاء فيها ، وتزوج بها . وعادته رغبته في التجوال والفرجة
على بلاد الصين ، فركب البحر إلى جزيرة سيلان ، وفيها رأهم يستخرجون
الياقوت من الأرض ، وقال إنهم يجدونه في أحجار بيضاء مشعبة ، ويكون

في أجوافها فيحكونها حتى تنفلق عن أحجار الياقوت ، وهي مختلفة الألوان ،
فنها الأحمر والأصفر والأزرق . وما عجب منه في هذه الجزيرة كثرة القروء ،
وقال إنها سود الألوان ، ولها أذئاب طوال ، ولذكورها لحى كالآدميين .
ويقص علينا أنه رأى في هذه الجزيرة الصخرة التي وضع آدم قدمه عليها ،
وهي خرافة . وقد أودع ابن بطوطة رحلته كثيراً من هذه الخرافات ، وما لاشك
فيه أنه يبالغ أحياناً ، حتى يصبح الواقع ضرباً من ضروب الخيال .

ورحل عن سيلان إلى بلاد بنغالة في الشمال الغربي للهند ، والتقى بسلطانها
وقصّ علينا بعض الكرامات لشيخ هناك ، ثم توجه إلى سومطرة أو بلاد
الجاوة ، وقصّ علينا طائفة من أحوالها ، ووصف بعض أشجارها مثل اللبان
والكافور والعود الهندي والقرنفل ، يقول :

« شجرة اللبان صغيرة تكون بقدر قامة الإنسان إلى ما دون ذلك ،
وأغصانها كأغصان الحشيش (الحشيش) وأوراقها صغار رقاق . . . واللبان
صمغية تكون في أغصانها . وأما شجر الكافور فهي قصب كقصب بلادنا ،
إلا أن الأنايب منها أطول وأغلظ ، ويكون الكافور في داخل الأنايب . . .
وأما العود الهندي فشجره يشبه شجر البلوط ، إلا أن قشره رقيق ، وأوراقه
كأوراق البلوط سواء ، ولا ثمر له . . . وأما أشجار القرنفل فهي ضخمة . . .
والمجلوب إلى بلادنا منها هو العيدان ، والذي يسميه أهل بلادنا نَوْر القرنفل
هو الذي يسقط من زهره ، وهو شبيه بزهر النارج . وثمر القرنفل هو المعروف
في بلادنا بجوز الطيب . رأيت ذلك كله وشاهدته . »

ويرحل ابن بطوطة عن سومطرة أو أرض الجاوة كما يسميها ، ويُسَمَّمُ نحو
الصين عن طريق البحر ، ويصل إلى ثغر الزيتون ويتنقل في هذه البلاد التي
طالما حلم بالفرجة عليها ، وما يقول فيها :

« أهل الصين يعبدون الأصنام ، ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود . وملك

الصين ترى من ذرية تنكيزخان . وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة (حى) للمسلمين ينفردون فيها بسكناهم ، ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها ، وهم معظمون محترمون . وأهل الصين (من غير المسلمين) يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها في أسواقهم . وهم أهل رفاة وسعة عيش ، إلا أنهم لا يحتفلون بمطعم ولا ملبس . . . ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه في المشى . والحرير عندهم كثير جدا ، لأن الدود تتعلق بالثمار وتأكل منها ، فلا تحتاج إلى كثير مثونة ، ولذلك كثر ، وهو لباس الفقراء والمساكين بها ، ولولا التجار لما كانت له قيمة . ويبيع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير . وعادتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعاً ، تكون القطعة منها قنطاراً فما فوقه وما دونه . . . وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم . . . وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد (ضرب من الورق) كل قطعة منها بقدر الكف ، مطبوعة بطابع السلطان . . . وجميع أهل الصين إنما فحمهم تراب عندهم منعقد كالسطل عندهم ، ولونه لون الطفل ، تأتي الفيلة بالأحمال منه ، فيقطعونه قطعاً على قدر قطع الفحم عندهم ، ويشعلون النار فيه ، فيقيد كالفحم ، وهو أشد حرارة من نار الفحم . . . ومن هذا التراب يصنعون أواني الفخار ، ويضيفون إليه حجارة سواه . وأهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات وأشدّهم إتقاناً لها ، وذلك مشهور من حالهم ، قد وصفه الناس في تصانيفهم ، فأطنبوا فيه . وأما التصوير فلا يجاريهم أحد في إحكامه من الروم ولا من سواهم ، فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً . ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك أنى ما دخلت قط مدينة من مدنها ، ثم عدت إليها ، إلا رأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد ، موضوعة في الأسواق . . . وتنتهى حالهم في ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعثوا صورته إلى البلاد ويبحث عنه ، فحيث وُجد شبه تلك الصورة أخذ .

ووصف لنا ابن بطوطة نظامهم في الجمارك وتفتيش السفن وأنهم يقيسون أسماء البحارة في سفنهم ، حتى إذا عادت من رحلتها سألوا عن كل شخص انتظم فيها ، وإن لم يجدوا أحد الأشخاص طلبوا من رئيس المركب الدليل على أنه مات أو فرّ . ويقص علينا ابن بطوطة كثيراً من أحوال المسلمين في البلاد الصينية المختلفة ، ويذكر أن في كل بلد شيخاً للإسلام وقاضياً منهم يحكم بينهم ويبالغ في الحفاوة التي كانوا يستقبلونه بها ، وقد أشاد بأسرة عثمان ابن عفان المصري التي لقيها في مدينة « ختمسا » وهو تاجر مصري استحسن هذه المدينة واستوطنها ، وأورث أبناءه فيها الجاه والحرمة . ومما أعجب به في هذه البلاد بيوت يتخذونها لدوى العاهات ، وشاهد هناك ضروباً من السحر والشعوذة على نحو ما شاهد في الهند بحضرة السلطان ، ومما يقصه من ذلك هذه الحكاية التي تشبه أن تكون خرافة :

« حضر أحد المشعوذة ، فأخذ كرة خشب لها ثقب ، فيها سيور طوال ، فرمى بها إلى الهواء ، فارتفعت حتى غابت عن الأبصار ، ونحن في وسط المشور (مجلس الأمير) أيام الحر الشديد . فلما لم يبق من السير في يده إلا يسير أمر متعلماً له ، فتعلق به وصعد في الهواء إلى أن غاب عن أبصارنا ، فدعاه ثلاثاً ، فلم يجبه ، فأخذ سكيناً في يده كالغتاط ، وتعلق بالسير إلى أن غاب أيضاً . ثم رمى بيد الصبي إلى الأرض ، ثم رمى برجله ، ثم بيده الأخرى ، ثم برجله الأخرى ، ثم بجسده ، ثم برأسه . ثم هبط وهو ينفخ وثيابه مطلقاً بالدم . فقبل الأرض بين يدي الأمير وكلمه بالصبي ، وأمر له الأمير بشيء . ثم إنه أخذ أعضاء الصبي ، فألصق بعضها ببعض ، وركله برجله ، فقام سوياً . فعجبت منه ، وأصابني خفقان القلب ، كمثل ما أصابني عند ملك الهند حين رأيت مثل ذلك ، فسقوني دواءً أذهب عني ما وجدت . وكان القاضي فخر الدين إلى جانبي ، فقال لي : والله ما كان

من صعود ولا نزول ولا قطع عضو ، وإنما ذلك شعوزة . ولعله ضرب من التنويم جعل ابن بطوطة يظن ذلك حقيقة واقعة . وبينما كان يطوف بالبلاد جاءته دعوة من ملكها لزيارته ، فرحل إلى مدينته « خانباليق » ووصف قصر الملك وأبوابه وديوانه ، وتصادف أن كان الملك مشغولاً ببعض الفتن والحروب فعاد أدراجه إلى ثغر الزيتون ، ووجد بها جنكاً لسلطان جاور الملك الظاهر ، فركبه ، ونزل عنده وأكرمه ، ثم صمم على أن يعود إلى بلاده ، ولكنه حين وصل إلى مصر رأى أن يحج إلى بيت الله الحرام ، فسافر إلى عيذاب على البحر الأحمر ومنها إلى مكة ، فأدى الفريضة ، وعاد منها إلى مصر ، ولم يلبث أن أبحر إلى تونس ، ووصل إلى فاس سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م وأطنب في وصف سلطاتها ومناقبه . ورحل رحلته الثانية إلى مسقط رأسه طنجة ، ودخل في بلاد الأندلس ، ثم عاد إلى فاس وقد عزم على أن يقوم برحلة ثالثة في السودان الغربي ، ليطلع على أحوال المسلمين هناك ويشاهد تلك البلاد .

٥

في السودان الغربي

خرج ابن بطوطة من مدينة فاس قاصداً سجلماسة في الجنوب ، وهناك اشترى الجمال وأعدّها لهذه الرحلة الشاقة في الصحراء الكبرى . وبدأ رحلته مع قافلة تقصد هذه الديار ، وكان ذلك في غرة المحرم سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م وكان مقدّم القافلة ورائدّها أبا محمد يسمّى كان المسوّفي . ووصلوا بعد خمسة وعشرين يوماً إلى تنغازا ، ولم يكذبصل إليها حتى عجب من بيوتها إذ رآها تتخذ من حجارة الملح ، ولم يكن يسكنها إلا غبيد مَسْؤُوفَة وهم يحفرون

على الملح في الأرض ، فيجدون منه ألواحاً ضخماً ، يبيعونها لأهل السودان ، ويقول ابن بطوطة إن للملح عند السودانيين شأنًا كبيراً حتى إنهم يتبايعون به ، كما يتبايع غيرهم بالذهب والفضة . ووصلت القافلة إلى تاسر هلا ، ومن هناك بعثوا برائد من قبيلة المسوفة إلى « إيولاتن » جرياً مع عادة القوافل ، إذ يكتب الناس مع هذا الرائد لأصحابهم بتلك البلدة حتى يكتسروا لهم الدور ، ويخرجوا للقائهم إيماناً لهم بالدخول . ودخل « إيولاتن » بعد مسير شهرين من سبلماسة ، وأكرمه قاضيا وعلماؤها ، ولاحظ أن الناس هناك يلبسون ثياباً من نسيج مصر ، وأن النساء جميلات فانتات وأن الرجال لا يغارون عليهن وأن الرجل يرثه أبناء أخته دون بنيه ، ويقول « ومع ذلك فهم مسلمون يحافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن الكريم » .

وعقد العزم على الوصول إلى « مالى » جنوبى نهر النيجر ، فاستأجر هو وثلاثة من أصحابه دليلاً من قبيلة المسوفة ولم يكن يمشى في الطريق حتى عجب من كثرة الأشجار وضخامتها ، حتى إن الواحدة منها تُظل القافلة ، ولاحظ أن في بعضها فجوات كبيرة يُحفظُ فيها ماء المطر ، وكأنها آبار ، والناس يشربون منها الماء . وعلى طول الطريق بقول وأشجار فواكه ، يقول :

« والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زاداً ولا إداماً ولا ديناراً ولا درهماً ، وإنما يحمل قطع الملح وحلى الزجاج وبعض السلع العطرية . وأكثر ما يعجبهم منها القَرَئِفْلُ والمَصْطَنكا ، فإذا وصل قرية جاء نساء السودان باللبن والدجاج ودقيق النبق والأرز والفول ، وهو كحب الخردل يصنعُ منه العصيدة ، ودقيق اللوبياء ، فيشتري منهم ما أحب من ذلك » .

وما زال في طريقه حتى وصل إلى « زاغة » وهي من البلاد التي دخلها الإسلام قديماً ، وأعجب بأهلها ، وانتهى إلى كارسوخو على نهر النيجر فظنه النيل ، وظل في رحلته حتى وصل إلى مالى حاضرة ملك السودان الغربى ، وكان قد

كتب إلى بعض الجالية العربية بها ، ليأخذ له الإذن في دخولها ، وليكرى له داراً ينزل بها ، والتقى فيها بتاجر مصري يسمى شمس الدين بن النقويس ، وأكرمه قاضي مالي وفقهاؤها : أما ملكها أو سلطانها فقد وصفه بالبخل ، إذ لم يلق عنده من كرم الضيافة ما لقيه في المشرق قاصيه ودانيه عند الملوك والسلاطين . ومن طريف ما ذكره ابن بطوطة عن هذا السلطان المسلم احتفاله بعيدى الفطر والأضحى ، وما يتخذ لذلك من مجلس كبير يتغنى فيه مغنيات حسان ويلعب فيه غلمان على رموسهم الشواشي البيض ويتقلبون في الهواء ويأتون بحركات خفيفة رشيقة . ثم يستقبل السلطان الشعراء . يقول ابن بطوطة : « يجيء الشعراء وقد دخل كل واحد منهم في جوف صورة مصنوعة من الريش ، تشبه (طائر) الشَّقْشَقِ وجعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر ، كأنه رأس الشَّقْشَقِ . ويقفون بين يدي السلطان ، فينشدون أشعارهم . ثم يصعد كبير الشعراء على درج البَسَنِي (مجلس السلطان) فيضع رأسه على كتف السلطان الأيمن ، ثم على كتفه الأيسر ، وهو يتكلم بلسانهم ، ثم ينزل . وأشاد ابن بطوطة بشمول العدل والأمن في هذه الديار وأن المسافرين فيها لا يخاف سارقاً ولا غاصباً ، وأن الناس هناك يواظبون على الصلاة ويعنون بأدائها في الجماعات وأن من لا ينيكّر إلى المسجد في يوم الجمعة لا يجد أين يصلي لكثرة الزحام . وقال إنهم يعنون بحفظ القرآن الكريم عناية شديدة . ومكث في مالي نحو ثمانية أشهر ، وخرج منها في المحرم سنة ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م ميمماً شطر « تنبكتو » ، ولم يكده يشرف على نهر النيجر حتى رأى ست عشرة دابة ضخمة الحلقة ، فظنها فيسلة ، ولكنه وجدها تدخل في النهر ، فسأل عنها فعرف أنها أفراس البحر ، ووصفها بأنها « أغلظ من الخيل ، ولها أعراف وأذنان ، ورموسها كرموس الخيل ، وأرجلها كأرجل الفيلة . . . وهي تعوم في الماء وترفع رأسها وتنفخ » . وذكر أن الناس هناك بصيدونها ويأكلون

لحمها . وهنا نراه يتحدث عن أكلة لحوم البشر ، ويقص حكايات تُروى عنهم ويصل إلى تنبكتو ، ويحدثنا أنه رأى بها قَبْر سراج الدين بن الكُويك أحد كبار التجار من أهل الإسكندرية ، ويذكر في سبب ذهابه إلى هناك أن حاكم هذه المدينة لما حج اقترض منه مالا ، فتوجه إليه ، ومعه ابنه ، فتصادف أن أدركه الموت هناك ، فدفن حيث مات ، وعاد ابنه بالمال . ويولّى ابن بطوطة وجهه إلى الشرق ، فيركب النيجر في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة ، وينزل بالقرى في كل ليلة ، فيشتري ما يحتاج إليه من الطعام بالملح والعطريات وحلّى الزجاج ، ويصل إلى مدينة كَوُكُو ، ويقول إنها مدينة كبيرة على النيل (النيجر) من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها . وفيها الأرز الكثير واللبن والدجاج والسملك وبها الفسقوص العناني (ضرب من القثاء) الذي لا نظير له ، وتعامل أهلها في البيع والشراء بالودع ، وكذلك أهل مالي .

ورحل عن كوكو إلى تككدّ ، وقال إنها مبنية بالحجارة الحمر ، ولا زرع بها إلا يسير من القمح ، ولا شغل لأهلها غير التجارة يسافرون بها إلى مصر ، ويجلبون منها حسان الثياب وسواها .

ونوّه ابن بطوطة بسلطان هذه البلدة لإكرامه له وحفاوته به ، ويظهر أنه كان ينوى الإقامة عنده ثم يتجه شرقاً إلى السودان وحوض النيل ، ولكن جاءه رسول من قبل سلطان فاس يأمره بالعودة ، فصعد بالأمر وعاد إلى فاس ، فوصلها بعد ثلاثة أشهر . وبذلك انتهت رحلة ابن بطوطة ، أعظم رحالة عرفه العرب في تاريخهم الوسيط .

الفهرست

صفحة

مقدمة	٥ - ٦
تمهيد	٧ - ١٠

الفصل الأول : رحلات جغرافية

١ - كتب الجغرافيا	١١
٢ - المسالك والممالك لابن حوقل	١٢
٣ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي	١٥
٤ - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي	١٩
٥ - آثار البلاد وأخبار العباد للقريني	٢١

الفصل الثاني : رحلات بحرية

١ - في عالم البحر	٢٧
٢ - رحلة التاجر سليمان	٢٩

صفحة

- ٣ — عجائب الهند برّه وبحره لبزرك بن شهریار ٣٣
 ٤ — رحلة الفتية المغرّرين ٤٢
 ٥ — عرائس البحر ٤٤

الفصل الثالث : رحلات في الأمم والبلدان . . . ٤٨ — ٦٩

- ١ — رحلات مبكرة ٤٨
 ٢ — أبو حامد الأندلسي في شرق أوربة . . . ٥١
 ٣ — أسامة بن منقذ بين الصليبين . . . ٥٦
 ٤ — عبد اللطيف البغدادي في مصر . . . ٦٠
 ٥ — رحلات مختلفة ٦٥

الفصل الرابع : رحلة ابن جبیر ٧٠ — ٩٤

- ١ — حياته وتطوافه في البلاد ٧٠
 ٢ — في الديار المصرية ٧٢
 ٣ — في الأراضى المقدسة ٧٧
 ٤ — في العراق والشام ٨٣
 ٥ — العودة إلى الوطن ٩٠

صفحة	
٩٥ — ١٢٢	الفصل الخامس : رحلة ابن بطوطة . . .
٩٥	١ — حياته وتجوّاله في الآفاق . . .
٩٨	٢ — من الأناضول إلى بلاد المغول . . .
١٠٦	٣ — في الهند
١١٣	٤ — من قندهار إلى الصين . . .
١١٩	٥ — في السودان الغربي . . .

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

- * الأدب العربي المعاصر في مصر
الطبعة الثامنة ٣٠٨ صفحات
- * البارودي رائد الشعر الحديث
الطبعة الرابعة ٢٣٢ صفحة
- * الشعر والغناء في المدينتي ومكة لعصر
بنو أمية
- * الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة
- * البحث الأدبي : طبيعته - ومناهجه -
أصوله - مصادره
- * الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة
- * الشعر وطوايعه الشعبية علي مر العصور
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة

في الدراسات النقدية

- * في النقد الأدبي
- * الطبعة السادسة ٢٥٠ صفحة
- * فصول في الشعر ونقده
- * الطبعة الثانية ٣٦٨ صفحة

في الدراسات البلاغية واللغوية

- * البلاغة : تطور وتاريخ
- * الطبعة السادسة ٣٨٠ صفحة
- * المدارس النحوية
- * الطبعة الخامسة ٣٧٦ صفحة
- * تجديد النحو
- * الطبعة الثانية ٢٨٢ صفحة
- * تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده
- * الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحة

في مجموعة نوابغ الفكر العربي

- * ابن زيدون
- * الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

في الدراسات القرآنية

- * سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة
- * الطبعة الثانية ٤٠٤ صفحات

في تاريخ الأدب العربي

- * العصر الجاهلي
- * الطبعة الحادية عشرة ٤٣٦ صفحة
- * العصر الإسلامي
- * الطبعة العاشرة ٤٦١ صفحة
- * العصر العباسي الأول
- * الطبعة التاسعة ٥٧٦ صفحة
- * العصر العباسي الثاني
- * الطبعة السادسة ٦٥٧ صفحة
- * عصر الدول والإمارات (١)
- * الجزيرة العربية - العراق - إيران
- * الطبعة الثانية ٦٨٨ صفحة
- * عصر الدول والإمارات (٢)
- * مصر - الشام
- * الطبعة الأولى ٨٤٨ صفحة

في مكتبة الدراسات الأدبية

- * الفن ومذاهبه في الشعر العربي
- * الطبعة العاشرة ٥٢٤ صفحة
- * الفن ومذاهبه في النثر العربي
- * الطبعة العاشرة ٤٠٠ صفحة
- * التطور والتجديد في الشعر الأموي
- * الطبعة السابعة ٣٤٠ صفحة
- * دراسات في الشعر العربي المعاصر
- * الطبعة السابعة ٢٩٢ صفحة
- * شوقي شاعر العصر الحديث
- * الطبعة العاشرة ٢٨٦ صفحة

في مجموعة فنون الأدب العربي

* الرءاء

الطبعة الثالثة ١١٢ صفحات

* المقامة

الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحة

* النقد

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

* الترجمة الشخصية

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

* الرحلات

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

في التراث المحقق

* المغرب في حلى المغرب لابن سعيد

الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة

الجزء الثاني - الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة

* كتاب السبعة في الفراءات لابن بجاهد

الطبعة الثانية ٧٨٨ صفحة

* كتاب الرد على النحاة

الطبعة الثانية ١٥٠ صفحة

* الدرر في اختصار المغازي والسير

لابن عبد البر

الطبعة الثانية ٣٥٦ صفحة

في سلسلة اقرأ

* العقاد

الطبعة الرابعة

* البطولة في الشعر العربي

الطبعة الثانية

* معي

الطبعة الثانية

* الفكاهة في مصر

الطبعة الثانية

١٩٨٧ / ٢٤١٧	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-١٩٨٥-١	الترقيم الدولي

١ / ٨٧ / ٣١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذه المجموعة

لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلو للقارئ العربي ألواناً من الفنون الأدبية التي عالجها الأدب العربي في مختلف أقطاره وعصوره . فهي تقف أمام كل فن أدبي فتعالجه في جزء أو أكثر من هذه السلسلة التي سيجمع فيها محصول وافر من فنون الأدب المختلفة التي تكون في مجموعها ذلك الهيكل الأدبي الضخم الذي شيدته العربية في تاريخها الطويل .

وفضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربي لا على طريقة النسين ، ولا على طريقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا في كتب التاريخ الأدبي ... ولكنها تعالج الأدب على مدى ما اتسع فيه من فنون ... فللمقامة موضوع ، وللقصة موضوع ، وللغزل موضوع ، وللوصف موضوع ... وهكذا تكبر هذه المجموعة على قدر ما في الأدب العربي من فنون .

فروش جنبه
٢٥٥٥

To: www.al-mostafa.com